قضايا إسلامية

قرطبة في التاريخ الإسلامي

د. جودة هلال
محمد محمود صبح

الهيئة المصرية العامة للكتاب

اهداءات ٢٠٠١

المستشار/ رابح لطفي جمعة

القاهرة

قضايا إسلامية

قرطبة
في التاريخ الإسلامي

الدكتور جودة هلال
ومحمد محمود صبح

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لم يكن الفتح الإسلامى لشبه جزيرة أيبريا حدثا من الأحداث السياسية أو الحربية التى كانت دوما تظهر على مسرح الحياة فحسب « ولكننا نعتقد أن هذا الفتح قد تبلور فى شكله إلى حدث ثقافى رائع ، أهَّلَ الإنسان لاكتشاف الكثير من المجاهل التى لم يطرقها عقله من قبل » ثم حفز هذا العقل على التنقيب والاختراع والابتكار ، وأفسح له الطريق ليسير بخطواته وأبحاثه واكتشافاته بما لم يتيسر للإنسان فى يوم ما . . ويشهد لذلك ما أنتجته العبقرية الإنسانية فى إسبانيا الإسلامية تحت رعاية الخلفاء وأرباب الدولة فى أعوام قليلة إذا قورنت بعمر التاريخ المديد .

وقد حاولنا جهدنا فى هذا الكتاب الذى نقدمه إلى المكتبة العربية أن نفصح عن بعض تلك الثمرات الجيدة ممثلا ذلك

فى النواحى الحضارية : الثقافية والفنية والفلسفية واللغوية والعمرانية .

وقدمنا فيه بعض الشخصيات الإسلامية الأندلسية التى لعبت أدوارا رئيسية فى إنعاش الحركة الثقافية وتخليدها . . . هؤلاء الأشخاص الذين قدموا خلاصة الفكر للإنسانية عامة ، وتتلمذ عليهم مباشرة أو على مدارسهم الكثير من شبيبة النصارى سواء أكانوا من الدولة النصرانية الإسبانية أم غيرها من دول أوربا التى كانت حتى ذلك العهد تنام نوما عميقا فى ظلامات الجهالة ، ولم يوقظها من نومها إلا صوت الحضارة الإسلامية وإنتاج العقل الإسلامى . . . .

هذا الإنتاج الذى أحدث الحركة الانفعالية الحضارية الإنسانية وعمت ربوعا كثيرة كان قد أصابها القحط والجهل ولكنها تطورت بفضل العبقرية الإسلامية وما قدمته لها من غذاء ثقافى وحضارى رغم أنها تبدو للناظرين له خلال الحجب الكثيفة وكأنها الفردوس المفقود وذلك للغواشى التى لحقتها فى العصور التالية .

ولم نعول كثيرا فى هذا الكتاب على الشخصيات السياسية

إلا بالقدر الذى تستبين به عظمة دولة الأندلس ومكانتها بين الدول المعاصرة لها ، أما الأساس فهو بسط الفكرة الثقافية والفنية التى هى بغية هذا الكتاب .

وإنا نرجو بهذا الجهد المتواضع أن نكون قد وفقنا فى الإسهام مع من تناولوا هذا الحقل بالدراسة ليعرف القارئ مدى ما قدمه العرب من آثار طيبة فى بناء الحضارة الإنسانية .

والله المستعان

دكتور

عبوده هلال

محمد محمود صبح


شبه جزيرة ايبيريا
جبال البرانس
نهر دويرة
سرقسطة
مدينة سالم
وادي الحجارة
مدريد
نهر التاجه
طليطلة
طلبيرة
بلنسية
برشلونة
ماردة
نهر وادي انا
جبال سيرا مورينا
قرطبة
الزهراء
نهر الوادي الكبير
مرسية
جبال سيرا نفادا
غرناطة
استجة
اشبيلية
طريف
مالقة
المرية
سبتة
جبل طارق

تمهيد

كان ظهور النبي محمد – « صلى الله عليه وسلم » – بمثابة البعث الجديد للإنسانية ، آمنت به جماعة من الناس فحملت عنه الأمانة ، و بلغت بعده الرسالة ، وكان للنفحة النبوية الطاهرة ؛ التي وهبها أمته أثرها البالغ ، في تطوير الأوضاع الاجتماعية ، وتغيير الموازين الدولية .

وراح العالم وقتها – في الشرق والغرب – يفكر ويقدر ، ثم يطول به التفكير والتقدير ..... يفكر في محمد الذى انبثق نوره من الصحراء ، ويتحدث عن هذا الرجل صاحب المعجزات ، الذى ملأ بشخصه ، والقرآن الذى جاء به، سمع الناس وبصرهم ، وتجاوز الحديث عنه حدود الصحراء ، وتخطت شهرته البحار والآفاق .

تذكر الروايات ، ويتحدث الثقات : أن هرقل الروم سأل أبا سفيان بن حرب – شيخ قريش وغطريفها ، وأول مناهض لدعوة محمد عليه الصلاة والسلام – عن ذات محمد وأخلاقه ودعوته ، فأجاب أبو سفيان عن الأولى بقوله : إنه من أكرم أرومة في العرب ، وعن الثانية بأنه جماع الأخلاق الكريمة ويدعى

بين الناس بالصادق الأمين ، وأجاب عن الثالثة بأن محمدا يدعو إلى عبادة الله وحده ، ويأمر الناس بالصدق والعفاف .

وهنا يتأمل هرقل عاهل الروم فى مقالة شيخ قريش ، ثم يعلن على الملأ من قومه : لئن كان ما تقوله حقا يا أبا سفيان ، فسيملك محمد موضع قدمى هاتين ..... ثم يضيف قائلا : ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

لقد أيقن عظيم الروم بثاقب فكره أن محمدا صاحب فكرة ثورية جديدة ، وأنه ما جاء إلا ليعلن الحرب فى غير هوادة على السادة المتجبرين الطغاة — ويدعو إلى التحرر من ربقة الأوثان فى شتى صورها ، وتباين أشكالها .....

وإن رجلا هذا شأنه لجدير بأن يملك موضع قدمى هرقل ، وما هو أبعد من موضع قدمى هرقل ، وصدقت نبوءة الرجل وصح حدسه ، وخرجت القوة المؤمنة الجديدة التى اختزنتها الصحراء عبر الأجيال تحمل راية الله سبحانه وتعالى ، وتبلغ عن أمره ، فتتابعت انتصاراتها الباهرة حتى وصلت شرقا إلى أقصى أقاصى الشرق ، ووصلت غربا إلى أقصى أقاصى الغرب .

ولم يشهد التاريخ فى أحقابه المديدة انتصارات مظفرة مثلما شهد انتصارات الفتوح الإسلامية .

فهذا عمرو بن العاص القائد العربى يستأذن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب فى فتح مصر فياذن له وينقض عليها عمرو بجيش لم تهزم له راية من قبل ، ثم يقطعها من جسم الدولة الرومانية العتيدة ليدخلها ضمن حدود الدولة الفتية الجديدة .

ثم تمتد هذه الموجة ـ موجة النصر ـ إلى الساحل الإفريقى حتى تبلغ مداها وهناك عند ساحل بحر الظلمات[١] يقتحم عقبة ابن نافع الفهرى بفرسه لجاج هـذا البحر ويشهد الله نفسه أنه لو كان يعلم أن وراء هذه الظلمات أرضا لما وقف شيء دون غايته وأماتته .

ومرت الأيام تباعا ، وانقضت سراعا وآلت الخلافة الإسلامية إلى الوليد بن عبد الملك وبلغت الجيوش الإسلامية حينذاك أطراف العالم . . . فبينما كانت هذه الجيوش تدق أبواب القارة الهندية فى الشرق ، كان المسلمون فى الغرب يتأملون شطئان أوروبا ويرنون بأبصارهم إلى ما وراء مضيق هرقل[٢] ، ثم تمتد عيونهم إلى الولايات الإسبانية الزاهية المشرقة ؛ تلك الولايات

(١) هو ما يعرف بالمحيط الأطلسى الآن .
(٢) هو ما يعرف بمضيق جبل طارق الآن .

التى أبدع فى وصفها مؤرخ الأندلس ـ غير مدافع ـ لسان الدين ابن الخطيب بقوله :

تمتاز أرض الأندلس بلذاذة الأقوات ، وفراهة الحيوان ، ودرور الفاكهة وكثرة المياه ،وتبحر العمران، وجودة اللباس، وشرف الآنية ، وكثرة السلاح وصحة الهواء ، وابيضاض ألوان الإنسان ، ونبل الأذهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الإدراك ، وإحكام التمدن ، بما حرمه الكثير من الأمصار .

الوضع السياسى قبيل الفتح :

كان الوليد بن عبدالملك الخليفة المروانى أمير المؤمنين يقطن دمشق وإليه جماع أمر المسلمين ، وكان الوالى من قبله على أفريقية الأمير موسى بن نصير ، ويقيم فى مدينة القيروان التى أسسها عقبة بن نافع الفهرى سنة خمسين من الهجرة ، وقد أمر موسى مولاه طارقا بن زياد على مدينة طنجة .

أما الشعب الإسلامى فى هذه المنطقة الساحلية بإفريقية من :

١ ــ العرب : وهم حملة المشاعل الأولى للدين الجديد .

٢ ــ البربر : وهم السكان الأصليون .

وقد صهر الإسلام جميعهم فى بوتقة واحدة ، وصيرهم شعباً واحداً ، وغدوا أمة واحدة تحدوهم روح واحدة .

أما فى شبه جزيرة الأندلس فكان الرومان يحكمونها منذ عصور سحيقة فى القدم : ويقال إن ثانى قياصرتهم أصدر أمرا بتشييد المدن فى الجزيرة الأيبيرية ، وبعث لهذا الفرض أربعة من أقطاب مملكته لتنفيذ هذه الرغبة السامية ، فشيد كل واحد من الأربعة مدينة بالجهة التى وَلِىَ أمرها ، وسماها باسمه ، وكانت هذه المدن هى :

١ — قرطبة ٢ — أشبيلية ٣ — ماردة ٤ — سرقسطة .

وظلت شبه الجزيرة خاضعة للحكم الرومانى القيصرى حتى أغار عليها قبائل الوندال فى القرن الخامس الميلادى : ومن ثَمَّ أطلق على هذه البلاد « ڤاندلوسيا » : أى بلاد الوندال .

ولكن لم تشأ القبائل القوطية أن تترك الوندال ينعمون بهذه الأرض الطيبة حتى أغاروا عليها ، وطردوا الوندال إلى إفريقيا ، وكونوا لهم دولة قوية فى إسبانيا ، عمرت فيما يقول المَقَّرى نحوا من أربعمائة سنة إلى أن جاء الإسلام .

وكان آخر هؤلاء الملوك القوطيين ملك يدعى «غَيْطَشه» هلك عن أولاد ثلاثة صغار ، لم تؤهلهم سنهم إذ ذاك لضبط الملك وتدبير شئونه ، فانحرف قائد الخيل ويدعى « رودريك » ويسميه العرب « لذريق » بمن تبعه من رجاله ، وجلس على

العرش يؤيده نبلاء القوط ، ورجال الكهنوت ، وسار إلى قرطبة ، بعد أن كان ملوك القوط الأصليين ينزلون « بطليطلة » .

وهناك على الساحل الإفريقي تقع مدينة « سبته » وكانت هذه المدينة من الناحية السياسية تخضع للحكم القوطي ، ويدين حاكمها له بالطاعة والولاء .

هذا الحاكم يدعى « يوليان » ، ويقول المؤرخون عنه ، إنه كان ينقم على لذريق لفعلة فعلها . . .

زعموا — أن ابنته الناشئة كانت تربى فى البلاط الملكى كوصيفة للملكة شأنها فى ذلك كشأن بقية بنات البطارقة . . . ولتأخذ حظها من الذوق والأدب ، فأعجب لذريق بجمالها واعتدى على عفافها . فبعثت إلى أبيها سرا لتفضى إليه بمكنون أمرها ، فأجاز يوليان البحر . . . ووصل إلى البلاط الملكى ، فاستقبله الملك حافلا به ، ثم قربه وأدناه ، ليمحو من نفسه أثر جريمته ، ثم ودعه بمثل ما استقبله به من حفاوة وإكبار ، ورجاه فى أن يبعث إليه ببعض الصقور ليزين بها قصره ، فأجابه يوليان على الفور ـ ونار الحقد تنهش أحشاءه » سأبعث إليك ببعض البزاة[1] التى لا عهد لك بها من قبل .

(١) البزاة : من الطيور الجارحة التى يصاد بها .

وشأن هذه القصة كشأن الكثير من القَصَص الذى لازم الفتح ، وذلك كقصة تدمير طارق للمراكب الحربية التى أقلته وجيشه إلى الشواطىء الإسبانية .

ثم قصة رؤية طارق للنبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم وحول النبي المهاجرون والأنصار ، قد تقلدوا الجميع السيوف ، وتنكبوا القسيّ ، فيقول الرسول الكريم « يا طارق تقدم لشأنك . . . ونظر طارق حوله فرأى النبي صلى الله عليه وسلم قد تقدم أصحابه ودخل أرض الأندلس ، فهب طارق من إغفاءته مستبشرا ، ونبأ أصحابه بأن ساعة النصر قريب .

هذه القصص وأمثالها لقيت من الخيال الشعبي فى القرون الوسطى خصوبة بالغة وامتد أمرها إلى الشعر والنثر : ورددها الكثير من المؤرخين العرب والإسبان .

الفتح :

كان هناك عنصران أساسيان جعلا سرعة الفتوح الإسلامية أشبه ما تكون بالأساطير ، والعنصران هما :

أولا — العنصر العسكرى : ويتمثل فى القوة المعنوية الحربية الهائلة التى أخرجت خبئها شبه الجزيرة العربية ،

واحتفظ بها الزمن لهذا العصر المشهود ، عصر الإنسانية الزاهر ، ومجدها اللامع .

ثانياً — كان هؤلاء العرب يحملون لواء حضارة جديدة تفوقت على حضارة الشعوب المغلوبة فانساب الفتح الإسلامى فى طريقه كالسيل الدافق ، فى إفريقيا وآسيا ، وحطم دولتين عظيمتين كان بيدهما زمام العالم ، ومصيره إذ ذاك .

وإفريقيا كانت هى نقطة الانطلاق إلى ما وراء المضيق بعد أن خضع سكان ساحلها المجيد لسلطان المسلمين ، وصار أهلها جمهرة تتقد قوة وعزيمة ، وسرت نشوة الانتصارات المتلاحقة فى عروقهم ، وجرت منهم مجرى الدم فى العروق ، فرماحهم الشرعة لا تعرف المهادنة ، وسيوفهم المهندة تواقة لملاقاة عدوهم التقليدى .

فهل يا ترى سيأتى ذلك اليوم المأمول الأغر ، وهل سيكتب القدر بأصابعه حروف هذا اللقاء ؟

إنهم يقفون الآن على الشاطىء الإفريقى ، وعيونهم ترنو فى إصرار عجيب إلى هذه الوديان القريبة ، والتى ليست عنهم ببعيد .

فيالها من ساعات سعيدة تلك التى يؤمرون فيها بالعبور إلى هذه الجنات الباسقات .

لقد حدثت المعجزة !

إن على إسبانيا رجلا اغتصب الملك من أهله الشرعيين ، ودنس شرف أحد أعوانه المخلصين .

ينهض هذا البطريق الموتور إلى الأمير المسلم طارق بن زياد ويتفق معه على غزو إسبانيا ، ويكشف لصديقه الجديد عن عورة عدوه ، ويدله على مكان الضعف فيه ، فيتأهب طارق للغزو بجيشه ، ويساعد البطريق يوليان بمراكبه وأدلائه ، ثم ينزل بجيش لجب فوق صخرة تسمت باسمه وعرفت فيما بعد بجبل طارق .

وينتهى الأمر الجلل إلى لذريق ، الذى كان وقتها مشغولا بإخضاع ثورة قامت ضده فى الشمال ، فيقفل مسرعا حيث تلقاه جيوش المسلمين عند وادى نهر « لكة » فيهزم وجيشه هزيمة ساحقة منكرة ويختفى لذريق إلى الأبد ، ولم يقف له أحد على أثر من بعد(١) .

(١) تذكر بعض الروايات الإسبانية أن لذريق لم يمت فى هذه الموقعة ولكنه دافع بعد ذلك عن وطنه فى مواطن عدة ثم مات فى البرتغال وهذا مخالف لما عليه إجماع الروايات العربية .

وينتشر الخبر فى كل مكان ، ويسابق أشعة الشمس ، وينتهى إلى موسى بن نصير الوالى على إفريقية ويأمر طارقا بالتوقف ريثما يلحق به ، ولكن طارقا يخشى مغبة هذا التوقف ، فيعقد فى الحال مجلسا عسكريا استشاريا يضم أركان حربه ، ويشير عليه المجلس بأن عملية التوقف ربما تعطى العدو فرصة التجمع والتكتل ، فينهض طارق ، ويقسم جيشه إلى فرق يبثها فى شبه الجزيرة .

ويلحق موسى بجيوش المسلمين ، ويسلك طريقا آخر غير الطريق الذى سلكه طارق ، ويذهب الجميع فى توطئة أكناف شبه الجزيرة ، وضمها إلى حظيرة الإسلام .

ومنذ ذلك اليوم ارتبطت الأندلس الإسلامية بالمغرب الإسلامى فى المدة التى تلت الفتح ، وكان واليها يولى من قبل أمير إفريقية . وكان أول وال تولى السلطة فيها بعد الفتح عبد العزيز بن موسى بن نصير ، عينه أبوه أميرا عليها بعد أن رحل إلى الشرق بناء على طلب الخليفة بدمشق .

وشاءت المقادير أن يتزوج عبد العزيز بفتاة مسيحية أغرته بدلالها ، وسحرته بفتنتها وأملت عليه بعض الأشياء ، اعتبرها المسلمون خروجا على تقاليد دينهم ، فثاروا عليه وقتلوه ،

وأمروا عليهم أيوب بن حبيب واليا على الأندلس .

عبد الرحمن الداخل — صقر قريش :

حينما سقطت دولة بنى أمية فى الشرق على أيدى أبناء عمومتهم العباسيين تناولوهم بالتقتيل ... وكأنها كانت حرب إبادة ، فشاء الحظ أن تكتب النجاة لشخص من بنى مروان يدعى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، ـ الذى لقب فيما بعد ـ بصقر قريش .

خرج هذا الفتى طريدا شريدا يلتمس النجاة من يد أعدائه وزودته أخته ببعض النقود يستعين بها فى تدبير شئونه ... ثم بعثت فى إثره بخادم يدعى بدرا ... وقد لعب هذا الخادم دورا هاما فى حياة عبد الرحمن .. وظل عبد الرحمن ومولاه يتنقلان خفية من مكان إلى مكان حتى وصلا إلى أرض الأندلس حيث كان لبنى أمية حزب قوى ، ولهم فيها عدد كبير من الموالى والأنصار ومعظمهم ممن اشترك فى الفتح من الشاميين الذين قامت على أكتافهم الدولة الأموية .

ويظهر أن عبد الرحمن اختار الأندلس محطا لرحاله لسببين . . الأول أنها كانت بعيدة عن مركز الخلافة الغاضبة

لدولة بنى أمية . والثانى كثرة الموالين للحزب الأموى فيها .

واستطاع هذا الطريد بمهارته أن ينشىء ملكا أمويا جديدا استقل به عن الخلافة الشرقية - خلافة بنى العباس - وقد كان النجاح الذى ظفر به الداخل حافزا للكثير من الأمويين على الهجرة إلى إسبانيا وقد أغدق عليهم عبد الرحمن المناصب والهبات .

ولقد حاول الخليفة العباسى أن يقضى على هذا الداهية . ولكن عبد الرحمن كان من اليقظة والحنكة بحيث قضى على أعدائه ، وبعث برءوسهم فى (غدائر) إلى الخليفة فى موسم الحج مما جعله يقول قولته المشهورة : الحمد لله الذى جعل بيننا و بينه بحرا . .

ومن هذا التاريخ الذى تولى فيه عبد الرحمن أمر الأندلس بدأ دور قرطبة فى توجيه دفة الأمور ، وبرزت إلى قمة الوجود لتشارك عواصم العالم المتحضر - إذ ذاك - فى السياسة والثقافة والعمارة وجميع مظاهر الحياة الحضارية ... وصارت مستقر الخلافة . . وموطن الوزارة . . . وكعبة الشعراء والأدباء . . وموئل أهل العلم ، ومقصد الطلاب . . . ومورد الثقافة .

الاستقلال السياسي :

كان دور هذه الدولة الناشئة يقوم على تثبيت أقدام الأمويين ، وتنمية استقلالهم السياسى فى الوطن الجديد . . لهذا نرى عبدالرحمن الداخل ينفق حياته فى إخماد الثورات الداخلية التى قامت ضده ، والتى كانت تطل برأسها فى أحيان كثيرة . . وعنى بشكل خاص بإخماد أنفاس كل دعوة لها صبغة غير الصبغة الأموية . . وسار بنوه وأحفاده ومن تعاقب من الأمويين على هذه النزعة الاستقلالية .. نزعة توطيد الملك وحمايته من الثائرين عليه والطامعين فيه . . . وقد واجه الأمير المنذر والأمير عبدالله بعض هذه الأخطار التى هددت أمن الدولة واستقرارها ردحا من الزمن . . . وقد تجسم هذا الخطر بشكل ملحوظ فى الثائر المتمرد عمر بن حفصون الذى تظاهر باعتناق الإسلام وأبطن غير الإسلام فى قلبه . . وكان مركزه « بر بشتر » . . وسوار ابن حمدون بمنت شاقند ، وسعيد بن جودى بالغرب ، وإبراهيم ابن حجاج بمدينة إشبيلية .

وتهدأ الأمور أحياناً ، وتضطرب حيناً حتى جاء عصر عبدالرحمن الذى لقب نفسه بالناصر . . فازدهرت فى أيامه

الأندلس . ونافست قرطبة فى عظمتها عظمة القيروان وبغداد والقاهرة وبخارى ودمشق ، وأصبحت قبلة العلماء والشعراء والكتاب والفنانين .. وخلق عبدالرحمن من الأندلس ـ مسرح الأطماع ـ دولة قوية عزيزة الجانب ، حتى ليمكن أن يقال إن قرطبة لم تكن فى عهد من عهودها أغنى ولا أكثر ازدهارا فى أى وقت مما كانت عليه فى عهد الناصر .

ويذكر بعض المؤرخين أن سبب اتخاذ عبدالرحمن لقب « الناصر » دون من تقدمه من الأمراء أن هؤلاء كانت تحوطهم بواعث الحكمة والسياسة والتحوط من إثارة الفتن . والخلافات الدينية والمذهبية ... ولكن لما ظهرت الدولة الفاطمية بالمغرب ، ونمت بسرعة فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، ثم تواترت الأنباء من جهة أخرى عما انتهت إليه الدولة العباسية فى المشرق من الاضطرابات والفوضى ، وما أحدثه استبداد موالى الأتراك وحَجْرهم على الخلفاء ، رأى عبدالرحمن أن الفرصة سانحة لأن يتسم بسمة الخلافة ، وأن يسترد بذلك تراث أسرته الروحى . . وأنه بما وفق إليه من النهوض بالدولة الإسلامية وتوطيد أركانها أحق بألقاب الخلافة من دولة منحلة وهى دولة بنى العباس ، وأخرى طارئة وهى دولة العبيديين أو الفاطميين ونفذ الأمر

بذلك فى أول ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ .

وينقل الأستاذ عبدالله عنان عن صاحب البيان المغرب نص الوثيقة التى أصدرها الناصر بصدد هـذا الموضوع وإليك نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم » . أما بعد ، فإن أحق من استوفى حقه وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسه للذى فضلنا به ، وأظهر أثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا إليه ويسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ، وللذى أشاد فى الآفاق من ذكرنا وعلو أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا واستبشارهم بدولتنا ، والحمـد لله ولى الإنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه . وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب وورودها علينا بذلك ـ إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ومتسم بما لا يستحقه ، وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه ، فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله . والله المستعان . وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة سنة ٣١٦ » .

وهكذا تدلنا هـذه الوثيقة التاريخية على أن عبد الرحمن

رأى نفسه أفضل من يتخذ سمة الخلافة ، وفى لوقت نفسه يعتبر التحلى بهذا اللقب حقا من حقوق بنى أمية ، وتسمى بأمير المؤمنين الناصر لدين الله . فكان بهذا الصنيع أول أمير من بنى أمية بالأندلس ينعت بإمارة المؤمنين . . وبدأت الدعوة له بذلك ولمن أتى بعده من بنى أمية ، ونقشت ألقاب الخلافة على السكة .

وغدا أمير المؤمنين ـ وهو فى قرطبة ـ يمثل سلطانه سلطان المسلمين والإسلام فى الغرب الإسلامى . . فوفدت عليه السفارات المسيحية تلتمس المفاوضة فى شتى الشئون الثقافية والتجارية والسياسية ، بل لقد ظلت الدولة المسيحية أشبه بالمحمية للدولة الإسلامية إلى القرن الحادى عشر . . وكانت قرطبة أشبه ما تكون بالعاصمة الكبرى لإسبانيا ، يفد إليها الملوك والسفراء يقدمون إلى صاحبها فروض الطاعة والولاء ، ويستجيرون به ويستظلون بظل سلطانه .

وكانت الأبهة والترف تبهران سفراء الدول مما جعلهم يتحدثون بذلك وينقلونه إلى بلاط بلادهم كما وقع مثلا لجان دى جورتس سفير امبراطور ألمانيا أوتون الأول إلى عبدالرحمن الناصر .

ومما هو جدير بالذكر أن عصر الناصر كان من أحفل

العصور بصلات الإسلام والنصرانية ، فكانت ثمة معاهدات وعلائق سياسية وسفارات بين قرطبة ومعظم الأمم النصرانية ؛ وتوالت وفود ملوك النصرانية يومئذ على بلاط قرطبة ينشدون الحلف ، ويرجون الصداقة والمودة من زعيم الإسلام فى الغرب. ففى سنة ٣٦٦هـ سنة ٩٤٨م وفدت على الناصر رسل قسطنطين السابع امبراطور قسطنطينية المعروف بيور فير وچنتوس بهدية ثمينة ، واحتفل الناصر بقدوم أعضاء تلك السفارة احتفالا مهيبا — وكان يوما مشهودا زين فيه القصر الخلافى بابدع زينة ، ونظمت العساكر والجنود تنظيما غريباً أدهش ضيوف الناصر .. وجلس أمير المؤمنين على كرسى الخلافة فى مهابة وإجلال يحف به أعضاء الأسرة الأموية وكبار رجال الدولة من الحجاب والوزراء وقدموا إلى الناصر كتاب الإمبراطور مكتوبا باليونانية ، وعلى الكتاب طابع ذهبي على أحد وجهيه صورة المسيح وعلى الآخر صورة الإمبراطور مصنوعة من الزجاج الملون البديع وفى ترجمة عنوانه ما يلى :

« من قسطنطين وزمانين المؤمنين بالمسيح الملكين العظيمين ملكى الروم إلى العظيم الاستحقاق الفخر ، الشريف النسب عبدالرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس أطال الله بقاه»

ومثل خطباء الأندلس أمام السلطان يذكرون مجد الأندلس وعظمة السلطان .

وقد أفاضت الرواية الإسلامية فى تفاصيل هـذه السفارة إفاضة واضحة ولكنها لا تلقى كبير ضوء على غايتها وموضوعها . وأكبر الظن أنها لم تكن إلا لتوطيد العلائق الطيبة بين بلاط قرطبة و بلاط قسطنطينية .

والحقيقة أن المصالح المشتركة بين بيزنطة وقرطبة هى التى دعمت أواصر الصداقة بينهما ، ولم تكن المصالح المشتركة بينهما سوى مقاومة الدولة الفاطمية الإفريقية الفتية التى ابتدأت تزعج حكومة بيزنطة فى أواسط البحر الأبيض المتوسط ، وتزعج بدورها حكومة قرطبة بتوغلها فى المغرب الأقصى . .

وشيئاً آخر كانت تخشاه الدولتان ، فبيزنطة كانت تشكو من الخلافة الشرقية من الشكوى ، وعبث الخليفة المأمون وأخيه المعتصم فى أرض القياصرة ثم من استيلاء البحارة الأندلسيين بقيادة أبى حفص البلوطى على جزيرة قريطش وهى من أملاك قيصر قسطنطينية . فهى بحلفها مع قرطبة أمنت سطوتها من ناحية ، ومن ناحية أخرى اعتمدت على حليف قوى مناهض للخلافة الشرقية التى أوشكت أن تترنح على أيدى الغلمان الأتراك

ودولة الفاطميين النـاشئة فى إفريقيا .

أما قرطبة فرغم قوتها وشدة بأسها فـكانت تخشى هى الأخرى الغزو الأفريقى المرتقب ثم من الغارات المتـكررة من المجوس . . ومن أجل هـذا نرى أمراء بنى أمية قد اهتموا باصطناع سياسة بحرية ، وعملوا على إعداد أسطول قوى يدفع عن الأندلس تلك الأخطار الناجمة عن هذه الغارات .

وقد اهتم بهـا عبدالرحمن الناصر بصفة خاصة . ويذكر العلامة ابن خلدون فى مقدمته أن أسطول الأندلس قد انتهى فى أيامه إلى مائتى مركب أو نحوها . ثم أخذ هذا الأسطول الأموى الحربى يسدد ضرباته إلى ممتلـكات الفاطميين فى بلاد المغرب . ففى سنة ٣١٩هـ = سنة ٩٣١م سير عبدالرحمن إلى ثغر سبته أسطولا قويا استولى عليها من يد البربر ولاتها ـ وهم بنو عصام حلفاء الفاطميين ، وبادر زعماء البربر من الأدارسة وزناتة إلى طاعته ومهادنته وامتدت دعوته إلى فاس ، وبعث إليه موسى بن أبى العافية أمير مـكناسة يطلب محالفته والدخول فى طاعته ، فأجابه عبدالرحمن إلى طلبه وأمده بالأموال والهدايا وقوى أمره فى الغرب . وفى سنة ٣٢١ هـ = ٩٣٣ م استطاع موسى حليف عبدالرحمن أن يهزم جيشا أرسله عبيدالله

الفاطمى لغزو المغرب والقضاء على دعوة الناصر بقيادة قائد ابن يصل عامل تاهرت .

ولما تولى الملك المعز رابع الخلفاء الفاطميين وبدت الدولة الفاطمية فى أوج قوتها ، أخذت أساطيلها تتأهب لغزو الأندلس وسارت بعض السفن في سنة ٣٤٤ هـ - سنة ٩٥٥م لمهاجمة ثغر المرية وأحرقت ما فيه من السفن وعاثت فسادا فى المرية ذاتها ، فما كان من عبدالرحمن إلا أن رد على هذه الحملة بحملة أخرى ، فأرسل قوة بحرية بقيادة أمير البحر غالب إلى شواطىء أفريقية (تونس) فعاثت فيها ، وأمر عبد الرحمن بلعن الشيعة والفاطميين على منابر الأندلس ، ثم عاد بعد ذلك بثلاثة أعوام فسير أسطوله ثانية إلى إفريقية بقيادة أحمد بن يعلى تهديدا للقوات الفاطمية التى زحفت بقيادة جوهر الصقلى حذاء الشاطىء إلى عدوة المغرب ، وعبرت حملة أندلسية أخرى من طريق سبتة إلى المغرب ولبثت هناك حتى ارتد الفاطميون إلى أدراجهم .

أما المجوس فقد ظهروا على الساحل الشرقى للأندلس وحاصروا حصن القبطة من حصون المرية أيضا - وكان ذلك فى عصر الحكم - مما اضطره إلى الذهاب بشخصه ليتفقد الأعمال الدفاعية وليشرف عليها بنفسه . ويذكر ابن الخطيب أنه

أنشأ الأسطول لغزوهم ، فكان عدده ستمائة .

وقد استخدم المنصور بن أبى عامر بعض وحدات من هذا الأسطول فى حملاته الحربية على ساحل قطالونية وجليقية سنة ٣٧٤ هـ — سنة ٩٨٥ م . وكانت مدينة المرية هى قاعدة الأسطول .

الحالة الاقتصادية :

لم تعد إسبانيا الإسلامية ولاية تابعة للخليفة فى بغداد كبقية البلاد التى خضعت لسلطان المسلمين ، فقد انتهت هذه التبعية بدخول عبد الرحمن الأول مؤسس خلافة قرطبة . . رغم أن أحدا من هؤلاء الأمراء لم يلقب بلقب الخلافة ـ كما أسلفنا ـ حتى جاء عبد الرحمن الناصر . .

وصارت إسبانيا الإسلامية فى عهد بنى أمية أغنى بقعة فى أوربا وأكثرها ازدحاما بالسكان . . ولذلك اهتمت حكومة قرطبة بالسياسة الإنتاجية اهتمامها بالمسائل السياسية والحربية ، فعنيت بالزراعة وشقت لها الترع وحفرت القنوات ، وجلبوا إلى الأندلس كثيرا من الأشجار والثمار التى لم تكن معروفة من قبل ، ويقول المؤرخون الإسبان : ورغم أن المسلمين

لا يشربون الخمر ـ وفقا للقواعد الدينية إلا أنهم اهتموا بزراعة شجر الكرم .. ثم الأرز .. وقصب السكر فى أماكن الخصب وخاصة مرسية ، وڤالينثيا ، وغرناطة .

وقد انتعشت الصناعة ـ هى الأخرى ـ فى هذا القطر انتعاشا ملموسا .. فكانت هناك مناجم الحديد والذهب والفضة والكثير من المعادن الأخرى ، واشتهر بالصناعة من المدن : جيان ، والجرب ، وباجة ، ومالقة .. أما صناعة الحرير والصوف فقد اشتهرت بها قرطبة ، ومالقة ، والمرية .. وبلغ عمال المصانع فى قرطبة وحدها ما يقرب من ١٣٠٠٠ عامل .. ومن المدن التى اشتهرت بصناعة ورق الكتابة : كونيكا .. ومن الصناعة التى أدخلها العرب صناعة الأسلحة ، واشتهر من المدن بهذه الصناعة مدينة : طليطلة ، وقرطبة ومن أجل حياة سعيدة فاضلة ارتبطت حكومة قرطبة اقتصاديا بالمدن الإفريقية كالقاهرة ثم بيزنطة وعامة بلاد الشرق .

العمران :

رأى أمراء بنى أمية أن تشييد البنيان مما يزيد فى تخليد مآثرهم ، وينسبون إلى الناصر أبياتا قالها فى هذا المعنى وهى :

هِمَمُ الملوك إذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم
ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه
أضحى يدل على عظيم الشان

ولذلك نلحظ أنه ما يكاد يستقر المقام بعبد الرحمن الداخل حتى يسرع فيبنى قصر الإمارة بقرطبة ، ثم المسجد الجامع . . ومع أن هذا الفتى قد خرج من الشرق فى ظروف يعز على غيره النجاة منها ، إلا أننا نراه يغلبه الحنين والشوق إلى أربعه وملاعبه ، وتأخذه أبهة قصور آبائه وأجداده وتملك عليه حواسه ومشاعره . . فراح يخلد ذكراه فى قصر بناه وسماه قصر الرصافة تشبيها له برصافة جده هشام بدمشق ، وجاء عبد الرحمن الأوسط يحكى نفس القصة ، فشيد القصور وبنى المساجد الجوامع ، وأدخل فى البلاد كثيرا من مظاهر الحياة الحضارية التى سبقت إليها من الشرق .

أما فى عصر عبد الرحمن الثالث فيقولون إن قرطبة كانت تحوى فى عصره ٥٠٠ ألف نسمة ، ومن الدور ١٣٠٠٠٠ دار .



تفاصيل زخرفية على الحجر من بقايا مدينتي الزهراء وقرطبة

عـدا القصور الفخمة ، والضواحى التى بلغت حوالى الثمانية والعشرين . . . وكان فيها من الحمامات ما يقرب من الثلاثمائة . . . ومن المساجد نحو ثلاثة آلاف مسجد .

ويقول المقرى فى تقسيم قرطبة : « وهى فى تقسيمها خمس مدن يتلو بعضها بعضا ، وبين المدينة والمدينة سور عظيم حصين حاجز ، وكل مدينة مستقلة بنفسها ، وفى كل منها من الحمامات والأسواق والصناعات ما يكفى أهلها . . .

ثم يقول : « وكان يتبع قرطبة ثلاثة آلاف قرية فى كل منها منبر وفقيـه مُقَلَّص ، تكون له الفُتْيَا فى الأحكام والشرائع ، وتبصير الناس بأحوالهم وأمور دينهم . . وكان يأتى إلى المسجد الجامع بقرطبة هؤلاء المُقَلَّصُون لتأدية صلاة الجمعة مع الخليفة ويسلمون عليه ويطالعونه بأحوال الرعية » .

وقد بلغت شهرة قرطبة أهل أوربا فأطلقوا عليها فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى « جوهرة العالم » .

وسنلتقى معك أيها القارئ العزيز على الصفحات التالية لنشهد معا كيف كانت قرطبة بمساجدها وقصورها ومتنزهاتها ثم بثقافة مثقفيها ، وعلم علمائها ، وكتابة كتابها ، وشعر شعرائها .



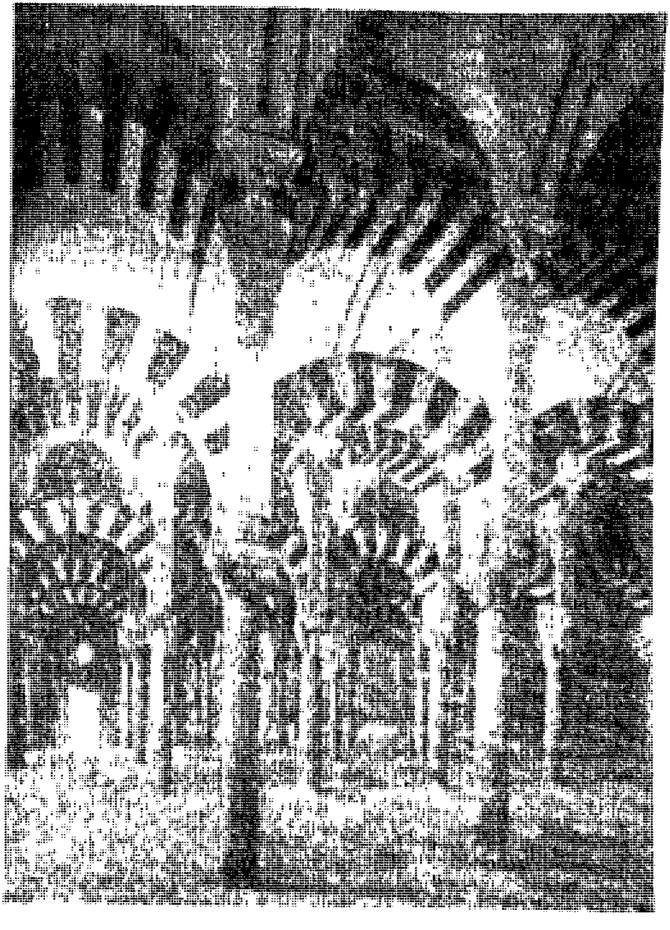
مسجد قرطبة

مسجد قرطبة

بعد سقوط قرطبة فى أيدى العرب المسلمين شاطروا المسيحيين فى مبدأ أمرهم ـ كنيستهم العظمى التى كانت داخل المدينة وتحت سورها . . وكانت تعرف باسم كنيسة القديس بنيامين ، فاتخذوا شطرا منها مسجدا وظل الشطر الثانى كنيسة كما هو ليؤدى فيه المسيحيون الطقوس الدينية والمراسيم الكهنوتية .

ولما آل الأمر إلى عبدالرحمن الداخل الأموى ، واستقرت له الأمور ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ أخذت قرطبة بأسباب الحياة والازدهار ، وفكر عبدالرحمن فى إقامة مسجد جامع يضارع المسجد الكبير بدمشق فى بهائه وورونقه . . وهنا تجلت قدرة العرب ومواهبهم الفنية فى تشييد مساجدهم حيث يؤدون صلواتهم ، ويحافظون على شعائر دينهم .. فكانت هذه المساجد آية من آيات الفن . وروعة من روائع الزمن . وفاقت المساجد الإسلامية الكنائس المسيحية عظمة . ونافستها فى زخرفتها ونقوشها .

تذكر الروايات أنه فى سنة ١٦٨ هـ سنة ٧٨٨ م ساوم



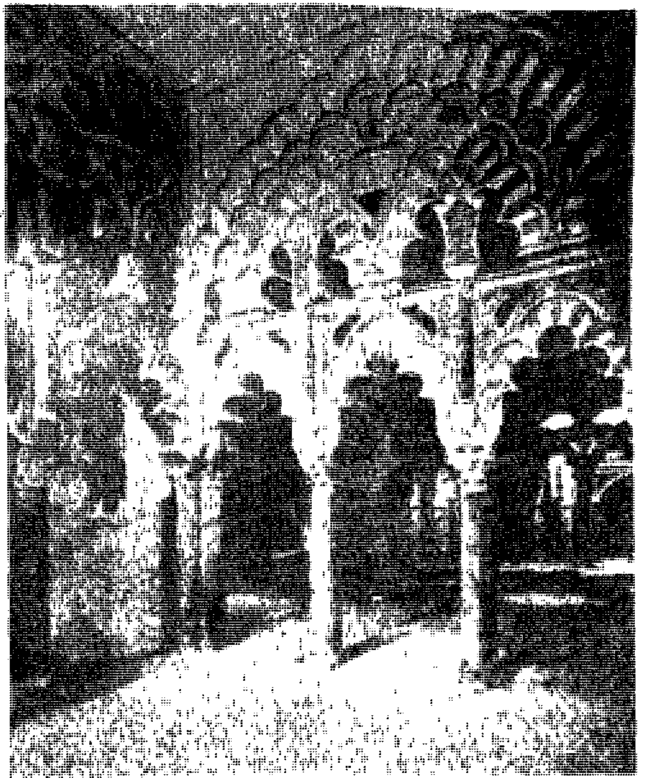
داخـــل المسجد

عبدالرحمن المسيحيين على ما بايديهم من الكنيسة المجاورة للجامع ... وأجذل لهم فيها العطاء ، وأوسع لهم فى الثمن ... فتنازلوا عن كنيستهم على شريطة أن يسمح لهم ببناء كنيستهم التى خربوها بظاهر قرطبة .

ووضع حجر تأسيس هذا المسجد فى عهد عبدالرحمن الأول ، وظل العمل مستمرا طوال إمارته وبعدها . فقد مات عبدالرحمن سنة ١٧٠ هـ قبل تمامه . . فأتمه خليفته وابنه هشام الأول بن عبدالرحمن

ومن هذا التاريخ أصبح المسجد موضع اهتمام الخلفاء من بنى أمية ومحل رعايتهم . . وتناولوه إما بالزيادة أو التجديد أو الزخرفة أو النقش .

وممن كانت لهم أياد تذكر ـ بالحمد والثناء ـ فى فخامته من الخلفاء . . هشام الرضا بن عبد الرحمن الداخل الذى أتم ما ابتدأ به والده وعبد الرحمن الأوسط الذى زاد فيه رواقين ـ ثم زخرفه . . ولكنه مات قبل إتمام الزخرفة ، فأتمها من بعده ابنه محمد بن عبد الرحمن الأوسط . . وجاء المنذر بن محمد الذى رمَّمَ ما وهى منه ، ... وعبدالرحمن الناصر الذى أقام به صومعة عظيمة سنة أربعين وثلاثمائة من الهجرة ـ



المقصورة

وحلت هذه الصومعة محل الصومعة القديمة ، والحكم المستنصر الذى أقام له ظلة تقى الناس هجير الشمس أثناء الصلاة ، وجدد الميضآت .

ويذكر المؤرخون أن تكاليف الزيادات التى سخت بها يد الحكم المستنصر بلغت قرابة واحد وستين ومائة ألف من الدنانير . .

ولم تقتصر العناية بهذا المسجد على خلفاء بنى أمية وحدهم ... بل تعدته إلى غيرهم ... فنرى الحاجب المنصور بن أبى عامر يقوم بزيادة امتازت بالوثاقة والمتانة ـ دون الزخرفة ـ ولم تفقها إلا زيادة الخليفة الحكم المستنصر بن عبدالرحمن الناصر .

ويقص علينا المؤرخون أن الحاجب المنصور هذا الذى تولى الحجابة فى عهد هشام الثانى (٣٦٦ هـ ــ ٣٩٣ هـ) لما عزم على القيام بتوسعة المسجد ، جلس لأصحاب الدور التى تقل أصحابها عنها ، والتى تتطلب التوسعة ضم رقعات دورهم إلى رقعة المسجد للزيادة المرجوة ، فكان يقول لكل واحد منهم : « إن هذه الدار التى لك ياهذا أريد أن أبتاعها لجماعة المسلمين من مالهم وفيئهم لأزيدها فى جامعهم ، وموضع صلاتهم ، فاشطط واطلب ماشئت » فإذا ذكر له أقصى الثمن الذى يطمح إليه ، أمر أن

يضاعف له ، وأن تشترى له بعد ذلك دارا عوضاً عن داره .

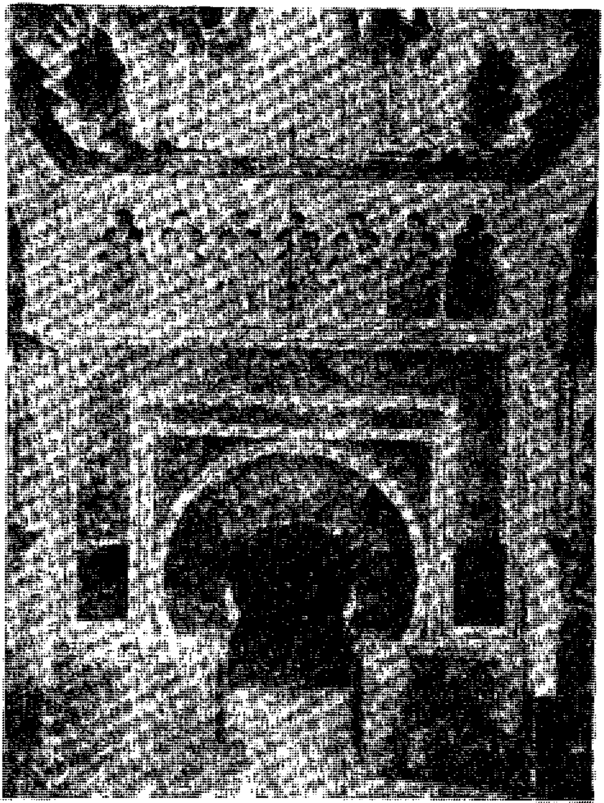
أمكنة الوضوء بالمسجد :

اقتضت الزيادة التى قام بها الحكم المستنصر هدم ميضأة المسجد القديمة ، وبنى أربع ميضآت بدلا منها ، اثنتين كبيرتين للرجال فى جهتيه الشرقية والغربية ، واثنتين صغيرتين للنساء ، وكان الماء يجرى فى جميعها من قناة جلبت من سفح جبل قرطبة ، وتصب ماءها الذى لا ينقطع ليلا ونهارا فى أحواض رخامية ، أما فضل هذا الماء العذب ، فكان يجرى إلى سقايات اتخذت على أبواب المسجد بجهاته الثلاث ؛ الشرقية والغربية والشمالية إلى ثلاث جواب من الرخام . وقد أزيلت هذه الميضآت عندما تحول المسجد إلى كنيسة بعد سقوط قرطبة فى يد المسيحيين فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى

مساحته :

بلغ طول المسجد بعد زيادة المنصور بن أبى عامر ؛ ثلاثين وثلاثمائة ذراع[1] وأصبح عرضه : ثلاثين ومائتى ذراع .

(١) الذراع يساوى ٥٨ سم



المحـــراب

أعمدته :

وأما أعمدته التى كانت من الرخام والتى كانت مكسوة بالذهب واللازورد فقد بلغت عدتها — بعد الزيادة المشار إليها — ثلاثة وتسعين ومائتين وألف عمود[1] .

وأصبحت بوائكه تسع عشرة من الشرق إلى الغرب ، وإحدى وثلاثين من الشمال إلى الجنوب .

أبوابه :

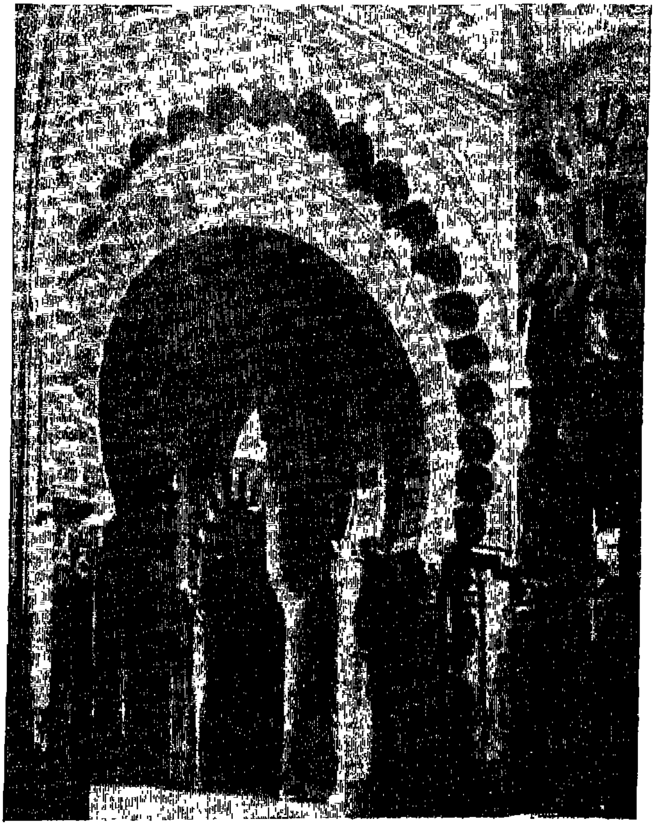
وصارت أبوابه واحداً وعشرين باباً وقد كسيت بالنحاس الأصفر اللمّاع الرائع الصنع ، ويذكر العلامة سديّو المتوفى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى : أن الباب الأوسط كان مرصعاً بصفائح من الذهب ، وبأعلاه ثلاث كرات مذهبة تعلوها رمانة من الذهب ، وأن عدد الأبواب تسعة عشر .

محرابه :

كانت حوائط المحراب مكسوة بالفسيفساء ، كما كانت تجرى

---

(١) يذكر سديو صاحب تاريخ العرب العام أن الأعمدة ١٠٨٣ .



ايوان القبلة

فيه الفضة ، وقد أزيل عند تحويل المسجد إلى كنيسة فى القرن السابع الهجرى .

منبره :

يقول المؤرخون إن منبر هذا المسجد كان مصنوعا من العاج ونفيس الأخشاب ، وكان يتألف من ست وثلاثين ألف حشوة (قطعة صغيرة من الخشب) سمرت بمسامير من الذهب والفضة ، كما كانت بعض هذه الحشوات محلاة بالأحجار النفيسة .

الإنارة بالمسجد :

كان هذا المسجد العظيم ينار فى الليل بسبعمائة وأربعة آلاف من المصابيح ، ويستنفد فى كل سنة أربعة وعشرين ألف رطل من الزيت ، وعشرين ومائة رطل من العنبر والند (العود) .

أما مصباح المحراب فكان مصنوعا من الذهب الخالص ، ويقال إنه كان بالمسجد تنور من نحاس أصفر يتسع لألف مصباح .

خدمة المسجد :

كان يقوم على خدمة هذا المسجد حوالى الثلاثمائة رجل



مئذنة المسجد

لإيقاد البخور من العنبر والعود ، وإعداد الزيت العطر لإضاءة عشرة آلاف فتيل للقناديل .

ويذكر المؤرخون أنه كان بهذا المسجد فى بيت منبره مصحف بخط الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، عليه حلية من ذهب مكللة بالدرّ والياقوت ، وعليه أغشية الديباج ، وكان يوضع على كرسى من العود الرطب المسمر بمسامير الذهب .

أقول نجم :

ظل هذا المسجد كعبة القصاد ، تهفو إليه القلوب ، ويجذب إليه طلاب العلم من كل من الشرق والغرب ، من مسلمين ومسيحيين ، وذاع ذكره بين الناس ، ونافس المدرسة النظامية فى بغداد ، والأزهر فى مصر .

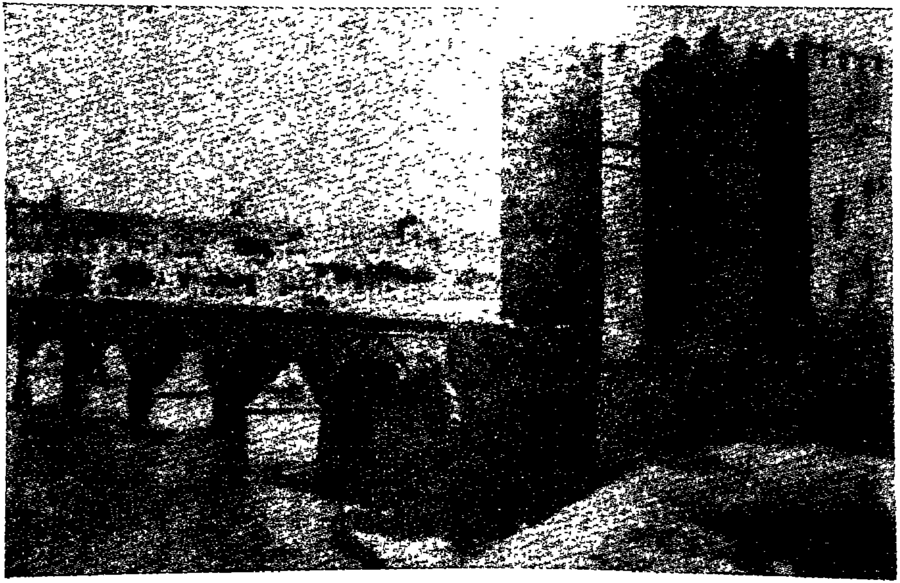
حتى إذا ماحلت سنة أربع وثلاثين وستمائة من الهجرة = ١٢٣٦ م سقطت قرطبة فى يد فرد يناند الثالث (من مسيحي الشمال فى إسبانيا) وبدأ محو معالم الحضارة الإسلامية فى الأندلس ، اتخذت فيه بعض التغييرات المعمارية فى مدخله ، وبعض أجزائه ، وتحول إلى كنيسة ولكنه مازال يحمل إلى اليوم اسم .

وهى كلمة إسبانية محرفة عن العربية La Mez uita de Cordoba
معناها المسجد .

مسجد الزهراء

حكم عبدالرحمن الناصر (الثالث) الأندلس (من ٣٠٠ إلى ٣٥٠ هجرية) وفى عهده ازدحمت قرطبة بسكانها ، فاتخذ لنفسه مدينة بالقرب من قرطبة ، وسماها مدينة الزهراء ، ورأى أن يجعلها مكتملة المعالم والاحتياجات ، فبنى بها مسجداً ليكون كغيره من المساجد الإسلامية ، مركزا للعلم ، ومجمعا للعلماء ، ومنارا تشع منه المعارف ، ولكن عظمة الزهراء لم تنس عبد الرحمن قرطبة وجامعها الكبير فكان يؤدى فيه صلاة الجمعة والأعياد .

ورغم أن يد الحدثان قد امتدت إلى هذه المدينة وجعلت منها قطعا متناثرة إلا أن كتب التاريخ ترسم صورة رائعة للمسجد ، وتصف ما كان عليه من جمال معمارى ، تتجلى فيه قوة الإبداع التى اتسم بها الفنان المسلم فى العمارة والزخرفة ، فجاء هو الآخر آية من آيات الفن .



نهر الوادى الكبير وعليه القنطرة التى اسسها الرومان

كان يعمل فى المسجد يوميا ثلاثمائة بناء ، ومائتا نجار ، وخمسمائة من الصناع ، والفعلة .

كان طوله من القبلة إلى الصحن سبعة وثلاثين ذراعا ، وعرضه من الشرق إلى الغرب تسعة وخمسين ذراعا ، كما أقيم فيه منبر حول مقصورة جميلة .

وكانت أرضيته مفروشة بالرخام ذى اللون الحمرى ، كما حلّى وسطه بنافورة بديعة الصنع .

نهر الوادى الكبير وقنطرة قرطبة

ينبع نهر الوادى الكبير من مرتفعات سِيرامورينا ، ثم يشق طريقه بعد المنبع بين سلسلتين من الجبال هما سِيرا مورينا Sierra Morena وسيِّرا نِقادا Sierra Nevada ويبدو واديه ضيقاً من منبعه حتى مسافة طويلة ، ثم يبدأ فى الاتساع عند قرطبة حتى يبلغ أقصى اتساعه فى الجزء الجنوبى ، ويصب النهر فى المحيط الأطلسى جنوبى شبه جزيرة أيبريا .

وتمثل سهول هذا النهر منطقة من أغنى المناطق الزراعية فى الأندلس ، وقد وصفه مؤرخو العرب وأدباؤهم ، وصفاً رائعاً ، وإليك ما قاله الحجارى فى كتابه « المسهب » : « وهو

أحسن الأنهار ، مكتنفا بديباج المروج ، مطرزاً بالأزهار ، تصدح في جنباته الأطيار ، وتنعر النواعير ، ويبسم النوار »

وقال آخر : « يمر النصف منه إلى مرسية شرقا ، والنصف إلى قرطبة وأشبيلية مغربا ، وهو نهر ساكن في جريانه ، لين في انصبابه » .

عرفت الأمم التي حكمت الأندلس — كالرومان — مآثره على البلاد ، فعملوا على تنظيم مياهه ، للانتفاع بها في الري ، فأقاموا عليه السدود والقناطر .

ومن القناطر التي كانت آثارها لا تزال باقية عند فتح العرب للبلاد ، قنطرة عرفت « بقنطرة الدهر » أو « قنطرة قرطبة » أو « الجسر » .

وعرف العرب المسلمون بثاقب فكرهم ، وبعيد نظرهم ، ما لهذا النهر وقنطرته من آثار عظيمة في السلم والحرب على السواء ، فقام السمح بن مالك الخولاني الوالي من قبل الخليفة الأموي بدمشق — عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه — بتجديدها على الأكتاف الرومانية القديمة سنة اثنتين ومائة بعد الهجرة .

ثم قام الخليفة الأموي بالأندلس هشام بن عبدالرحمن

الداخل بتجديدها ، وتدعيمها ، حتى صارت من أعظم الآثار الإسلامية .

كان طولها ثمانين ذراعاً ، وعرضها عشرين ، وارتفاعها ستين ، وكان لها ثمانى عشرة حَنيَّة (قوس) ، ويذكر الإدريسى المؤرخ « إنه كان بأسفلها رصيف من الأحجار والعمد البديعة ، وكان على السد ثلاثة أرجاء ، فى كل بيت منها أربعة مطاحن مائية » .

كما كان بالطرف الشرقى من هـذه القنطرة ، قلعة سماها العرب « القلعة الحرة » لها برجان عظيمان .

ولقد اعتبر العرب هـذه القنطرة مفخرة من المفاخر التى تمتاز بها قرطبة عن غيرها من بلاد الأندلس فذكرها الشعراء فى شعرهم عن المدينة ، وما أحسن قول بعضهم إذ قال :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة ... منهن قنطرة الوادى وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم أعظم شىء وهو رابعها

متنزهات قرطبة

كان لقرطبة خارج نَضِر ، فالأرض مخضرة قد كستها المزروعات المختلفة الأنواع فتبدو كأنها بساط سندسى مطرز بالمتعدد اللون من الأزهار ، ومزين بالمتنوع الثمر من الأشجار ،

يترقرق الماء بينها صافياً فى مجار أبدعتها يد الخالق القدير .

وكانت هذه الطبيعة البهيجة تغرى سكان قرطبة بالتوجه إليها للتمتع بجمالها ولقضاء فترات من الراحة والاستجمام بها .

ولم يفت خلفاء بنى أمية بالأندلس أن ينتفعوا بهذه المسارح الطبيعية للترويح عن النفس ، وإقامة متنزهات ، وقصور فخمة بها ، تَغَنَّى بجمالها الشعراء ، وأبدع فى وصفها الكتاب .

ولقد كانت النشوة الكاملة تسود قرطبة فى أعيادها ، فتراها متلألئة بالأنوار ، انتثرت فى طرقاتها الأزهار ، وانبعث من متنزهاتها الشَّجِىُّ من ألحان الوسيقى ، يملأ أرجاء الفضاء ويشيع فى النفس السعادة والهناء .

ومن المتنزهات الأولى التى شاع ذكرها ، وانتشر بين أرجاء الدنيا صيتها :

متنزه الرصافة :

أنشأ عبد الرحمن الداخل ضاحية بشمال غربى قرطبة أطلق عليها اسم الرصافة تشبها برصافة دمشق التى كان قد أنشأها جده هشام ، ثم أقام بها قصرا منيفا لسكناه ، وألحق به متنزها ، دحيت به الجنان الوارفة الأنيقة والحدائق الغناء البديعة التى تقل

إليها غرائب الغراس ، وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها من الأقطار ، كالرمان وغيره .

ويروى المؤرخون أن عبد الرحمن كان وفيا لذكريات صباه ، فأراد أن يرى بعهد ملكه الجديد ما يكون فيه سلوى وأنسا ، فأمر بأن تغرس فى هذا المتنزه نخلة أحضرت من البادية ، فكان يردد وهو جالس يتفيأ ظلها هذه الأبيات :

تبدت لنا بين الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرُّب والنوى
وطول ابتعادى عن بنىَّ وعن أهلى
نشأْتِ بأرض أنت فيه غريبةٌ
فمثلك فى الإقصاء والمُنْتَأَى مثلى
سقَتْك غوادى المُزْنِ من صَوْبها الذى
تَسُحُّ ويَسْتَمْرِى السِّمَاكَيْنِ بالوَبْل(1)

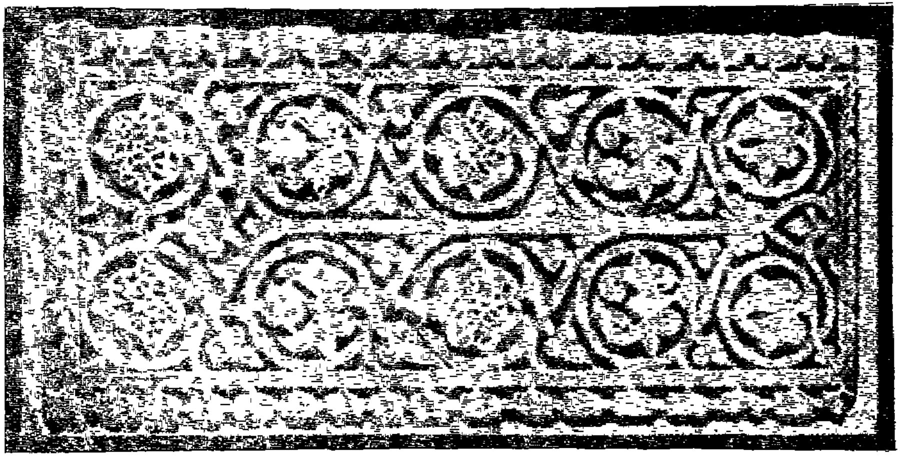
(1) الوبل : المطر

متنزه فحص السرادق :

كان من المتنزهات المشهورة بجمالها ، وحسن تنسيقها ، وبديع أزهارها « كان مقصودا للفرجة ، يسرح فيه النظر وتبتهج فيه النفس » ، وقال فيه الشاعر الشريف الأصم القرطبي :

ألا فدعوا ذكر العُذَيب وبارق[1]
ولا تَسْأَمُوا من ذكر فحص السُّرادق
قَعَدْتُ عليه اللّحظَ ما دُمْتُ حاضراً
وفِكْرِىَ فى غَيْبٍ لِمَرْآه شائق
أيا طيب أيام تقضّت بروضة
على لَمح غدران وشم حدائق
إذا غرّدت فيها حمائم دَوْحها
تخيّلتها الكُتّابُ بين المهارق[2]

(١) العذيب وبارق : اسمان لمكانين .
(٢) المهارق : مفردها مهرق وهى الصحيفة



زخارف على المرمر وجدت فى مدينتي قرطبة والزهراء

قصور قرطبة

ازدهرت قرطبة فى العهد الأموى بكثير من مبانيها الفسيحة ، ودورها الواسعة ، وبلغ سكانها حوالى النصف مليون من النسمات ، وأنشأ الخلفاء من أمثال ـ عبد الرحمن الداخل ، والحكم الأول ، وعبد الرحمن الأوسط ، ومحمد الأول ، وعبد الرحمن الناصر ، والحكم المستنصر ـ فيها أو بالقرب منها قصورا فخمة لسكناهم ، أو للراحة والاستجمام ، نذكر منها : المجلس الزاهر ، والبهو الكامل ، والقصر المنيف ، وقصر الرصافة ، وقصر الدمشق ، وغيرها عدا قصر الإمارة بقرطبة ، ونذكر هنا وصفا لبعض ما ذاعت شهرته من هذه القصور .

قصر الإمارة بقرطبة :

قصر قديم تداوله الملوك السابقون على الفتح الإسلامى ، « وكان فيه من المبانى الأولية ، والآثار العجيبة لليونان والروم والقوط ما يعجز عنه الوصف » .

وقد اتخذ عبد الرحمن الأول (الداخل) منه مقرا لإمارته ، ومركزا لتصريف شئون دولته ، وأخذ فى تجميله والعناية به ، كما عنى به من خلفه من الأمراء .

ألحق به عبد الرحمن الرياض الفيحاء ، والبساتين الجميلة ، وأجرى الماء إلى كل ساحة من ساحاته ، وناحية من نواحيه ، فى قنوات من الرصاص « تؤديها منه إلى المصانع تماثيل منوعة الصور ، مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس المموّه ، إلى البحيرات العظيمة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الغريبة ، فى أحواض من الرخام حليت بنقوش جميلة » ، كما كانت به قباب « عالية السمو ، منيفة العلو ، لم ير الراءون مثلها فى مشارق الأرض ومغاربها » .

وعلى الرغم من أن هذا القصر ظل يحظى بعناية حكام المسلمين بالأندلس حتى أفول نجم قرطبة ، إلا أنهم اتخذوا قصورا غيره لسكناهم وراحتهم ، وإليك وصف بعض القصور الأخرى :

قصر الرصافة :

سبق أن ذكرنا أن عبد الرحمن الداخل أنشأ ضاحية شمالى غربى قرطبة ، عرفت بالرصافة ، وأقام بها قصرا فخما لسكناه أكثر أوقاته ، وألحق به المتنزه السابق وصفه .

قصر الدمشق :

كان هذا القصر من القصور الجميلة ، التى أبدع بناؤها ، ونمقت ساحاتها وأفنيتها ، وكان يقوم على أعمدة من الرخام .

وقد اتخذه أمراء الأندلس مكانا للتسلية ، ومجالا للترفيه ، محاكين به قصر أجدادهم السابق بدمشق ، وقد أطنب الشعراء فى وصفه ، والتغنى بجماله وحسنه ، وفضلوه على كل القصور ، وكانت ثماره اليانعة ، ووروده وأزهاره التى تنشر أريجها فتملأ النسمات بما يشرح الصدور ، ويزيل الهموم من النفوس ، محركا لمشاعرهم ، فانطلقت أشعارهم تبين ما كان يتميز به هذا القصر من منظر بديع ، و ماء جار ، قد وصفه ابن عمار بقوله :

كل قصر بعد الدمشق يذم
فيه طاب الجنَى ولذَّ المَشَمّ
منظر رائق وماء نمير
وثرى عاطر وقصر أشم
بت فيه والليل والفجر عندى
عنبر أشهب ومسك أحم[1]

(١) أحم : أسود .

قصر الزوضة:

فى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة من الهجرة اقتدى عبد الرحمن الناصر بأجداده ، فاختار موضعاً على بعض مرتفعات سيرامورينا الشرقية على نهر الوادى الكبير ، إلى الشمال الغربى من موضع الزهراء التى أنشأها بعد ذلك بسنة ، وأقام قصرا له عرف بقصر الروضة أو قصر الزهراء .

ولقد ذاع ذكر هذا القصر ، فأطنب المؤرخون فى وصفه وما كان عليه من فخامة وجمال تثير الدهشة ، وهأنذا أسطر بعضا مما قاله المؤرخون العرب فيه : إن حيطان هـذا القصر كانت من الرخام السميك ، ومصفحة بألواح لازوردية ذهبية ، وإن قرامده كانت من الذهب والفضة ، وكانت قبابه تقوم على ثلاثمائة وأربعة آلاف عمود من أنواع الرخام المنقوش نقشا متساويا ، « وكانت فى ردهاته عيون ماء عذب ، تنضب وتغيب فى أحواض من الرخام الأبيض واليصب مختلفة الأشكال » .

ومن العجائب التى كانت بهذا القصر ، بركة بها أوزة من ذهب معلق فى رأسها ، لؤلؤة كبيرة ، وهذه اللؤلؤة كانت هدية من القيصر ليون امبراطور القسطنطينية إلى الخليفة» . «وصهريج

عظيم مملوء بالزئبق ، فإذا أراد الخليفة أن يفزع أحدا من أهل مجلسه أومأ إلى أحد حراسه ليحرك الزئبق ، فتظهر فى المجلس كلمعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب ، حتى يخيل لكل من فى المجلس أن المحل قد طار بهم ، مادام الزئبق يتحرك »

ومما كان يثير العجب به : حوض منقوش بصور الإنسان ، جعل عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس العالى ، مما عمل بدار الصناعة بقرطبة ، يخرج الماء من أفواهها . . وكذلك الأبواب التى انعقدت فى حنايا من العاج ، والأبنوس المرصع بالذهب والجواهر ، والتى كانت تقوم على ساريات من الرخام الملون ، والبللور الصافى ، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب ، فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه ، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار .

وكانت تحيط بهذا القصر حدائق واسعة فى وسطها قبة للخليفة معدة لاستراحته بعد القنص ، تقوم على أعمدة رخامية ذات تيجان مذهبة .

وقد بلغ من اتساع هذا القصر أنه كان يحوى أربعمائة حجرة ، وأجنحة يأوى إليها آلاف الحراس والعبيد .

ضواحي قرطبة

بلغت أرباض قرطبة نيفا وعشرين ربضا ، وكان لكل ربض أسواقه وحوانيته ومسجده ، وقد اتخذ الخلفاء لقرطبة ضواحي ، أنشأوا بها قصورا للراحة والسكنى ، ومن أجمل هذه الضواحي وأعظمها شهرة ضاحيتا الزهراء والزاهرة ، اللتان لم يبق الزمان من معالمهما شيئاً ، اللهم إلا ما كشفت عنه الحفريات ـ التى بدأت منذ سنة ١٩١٠ م وما بعدها ـ من بقايا الزهراء .

وإليك الحديث عما كانت عليه الزهراء والزاهرة من فخامة وعظمة ، يجلان عن الوصف . ويثيران الدهشة ، ويدفعان بالإعجاب إلى درجة السمو .

(ا) الزهراء :

لما استفحل أمر عبد الرحمن الثالث (الناصر) واستتبت له الأمور فى جميع أنحاء الأندلس ، تطلع إلى تشييد القصور ، والمبانى الفخمة ، سالكا مسلك من سبقه من أجداده سواء منهم الأندلسيون أو الشاميون .

ففى سنة خمس وعشرين وثلاثمائة من الهجرة بنى ضاحية فى الشمال الغربى من قرطبة وعلى بعد ثلاثة أميال منها على جبل يسمى جبل العروس (مرتفعات سيرا مورينا) ، واستدعى لهذا الأمر المهرة من المهندسين والبنائين من كل صوب وحدب ، فوفدوا عليه من بغداد والقسطنطينية وغيرها .

سبب البناء :

يذكر المؤرخون أن الناصر كانت له سُرية ماتت عن أموال كثيرة أوصت بها لفكاك أسرى المسلمين ، فطلب الناصر أسيرا ببلاد الفرنج فلم يوجد فشكر الله على ذلك . فقالت له جاريته الزهراء وكانت أثيرة عنده ، « اشتهيت سيدى لو بنيت لى مدينة تسميها باسمى وتكون خاصة لى » . فما كان منه إلا أن لبى طلبها وسميت المدينة الزهراء .

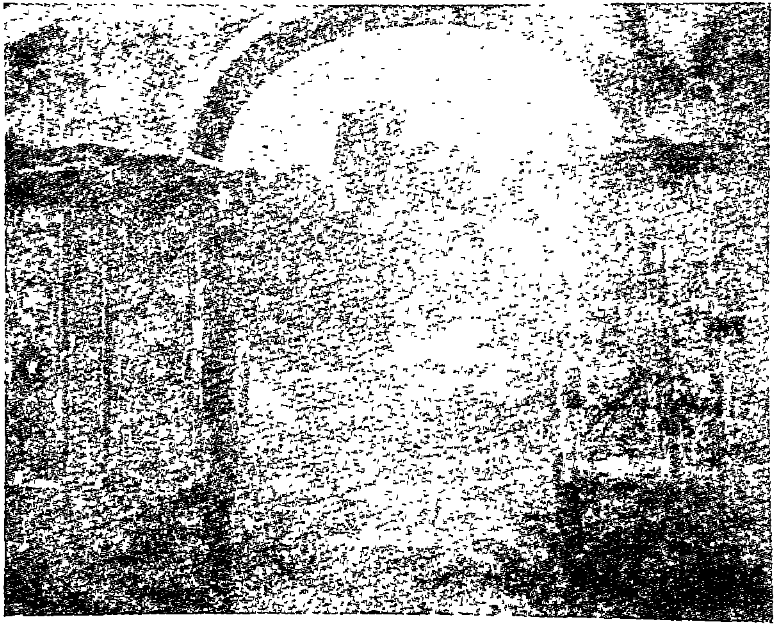
هذا ما يذكره بعض المؤرخين فى سبب البناء ، ويرى البعض الآخر ، أن الناصر لم يكن من الإسفاف بحيث ينفق هذه الأموال الطائلة على بناء ضاحية كهذه نزولا على رغبة جارية من جواريه ـ وقد قدر المؤرخون أن الناصر خصص ما يقرب من ثلث خراج دولة الأندلس للإنفاق على هذه الضاحية .

ويرى الدكتور حسن إبراهيم حسن « أن عبدالرحمن الناصر ولى بعد فترة طويلة انتابها الضعف ، فلما وطد دعائم ملكه ، ووحد بلاد الأندلس ، وأصبح خليفة للمسلمين ، فكر فى بناء مدينة يتخذها حاضرة لخلافته ، مقتديا فى ذلك بأبى جعفر المنصور حين بنى بغداد ، وعبيدالله المهدى حين بنى المهدية ... » وغيره من الخلفاء الذين اختطوا المدن وعمروها .

كانت هذه المدينة متدرجة البناء ، وتتكون من ثلاثة أقسام ، لكل قسم منها سوره ، وكان بالقسم الأول القصور ، وبالأوسط البساتين والرياض ، وبالثالث الدور والمسجد . تأنق الناصر فى بنائها ، وبالغ فى زخرفتها ، وجلب إليها الرخام المختلف الألوان : من مجزع ووردى وأخضر ، من بلاد الأندلس ، وبعض مدن إفريقيا ، ومدينة القسطنطينية ، كما ورد بعضه هدية من الملوك والأمراء ، وبلغت الأعمدة التى استعملت فى البناء حوالى الأربعة آلاف عمود ، كما بلغت أبوابها حوالى الخمسة عشر بابا .

العمال :

وكان يعمل فى بنائها يوميا عشرة آلاف عامل ، وخمسمائةوألف



عقد من بقايا الزهراء

دابة من دواب الحمل ، وظل العمل فيها جاريا أربعين سنة ، شملت حكمي الناصر وابنه الحكم المستنصر .

ويكمل المؤرخون قصة الجارية الزهراء مع مولاها عبد الرحمن الناصر حينما نزلت بها بعد إتمامها فيقولون : « إنها قعدت فى مجلسها ونظرت إلى بياض المدينة وحسنها فى حجر ذلك الجبل الأسود فقالت : « سيدى ! ألا ترى إلى حسن هذه الجارية الحسناء فى حجر ذلك الزنجى ؟ » وهنا نرى فى الأمر الذى سيصدره عبد الرحمن كما يصوره المؤرخون تسرع المحبين فى إرضاء أحبائهم ، فيأمر « بزوال ذلك الجبل » فقال بعض جلسائه « أعيذ أمير المؤمنين أن يخطر له ما يشين العقل سماعه ؛ لو اجتمع الخلق ما زالوه حفرا ولا قطعا ، ولا يزيله إلا من خلقه » وحينئذ عدل الناصر عن رأيه الأول وأمر بأن يقطع شجره ويغرس بأشجار التين واللوز ، ولم يكن منظرا أحسن منه ، ولا سيما فى زمان الأزهار وتفتح الأشجار .

واتخذ الناصر بها قصره السابق ذكره وهو « دار الروضة » وجعل الزهراء دارا لنزله ، وكرسيا لملكه ، وأنشأ فيها القصور الفخمة ، والبساتين الأنيقة ، وخصصت بها للوحوش محلات فسيحة الفناء ، متباعدة السياج ، كما عملت بها مسارح



جرة وجدت فى بقايا مدينة الزهراء

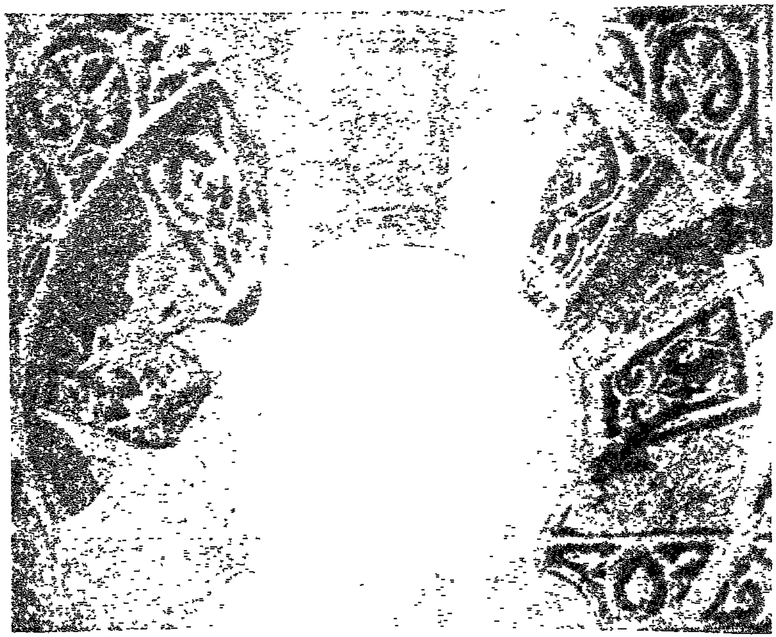
للطيور مظللة بالشباك ، وأقيمت بها دور للصناعة ، كصناعة آلات الحرب ، والحلى وغيرها من الحرف .

توصيل المياه إلى الزهراء :

رأى الناصر أن ماء نهر الوادى الكبير ـ الذى كان يقع عليه كل من قرطبة والزهراء ـ يصبح غير صالح للشرب عند انخفاضه ، فأراد أن ييسر للمدينة الجديدة الماء الصالح طيلة أيام السنة ، فاحتفر قناة من نهر الوادى الكبير تمر بالجبل ، كان طولها ثمانين كيلومترا ، تمت سنة تسع وعشرين وثلاثمائة من الهجرة ولا تزال آثارها باقية .

ولقد أطنب المؤرخون والرحالة « فى وصف الزهراء ، وجداولها المتدفقة ، وبساتينها النضرة ، ومبانيها الفخمة ، وقصورها الجميلة ، والموظفين ، ورجال البلاط ، وتشكيلات غلمان الصقالبة الذين يغدون ويروحون فى شوارعها الواسعة ، بسراويلهم الحريرية الخالصة ، والوشاة بالذهب والفضة ، وجماعة القضاة ، والفقهاء ، والشعراء ، الذين يسيرون فى جد ورزانة فى ردهات القصر الفخمة ، وأبهائه الفسيحة » .

وأعطوا للأجيال المتعاقبة صورة حية ، لحالة المدينة الجديدة ،



زخرفة على عقد من بقايا الزهراء

وما كانت عليه من جمال وعمران وحياة ، كما تغنى الشعراء بذكرها وحسن رونقها .

ومن أحسن ما قاله شاعر فيها قول الوزير ابن زيدون من قصيدة طويلة يحنّ فيها إلى مجالس قرطبة وضواحيها ، بعد أن قلب له الزمن ظهر المجن ، وأبدله بالعز بؤسا وبالسلطان ذلا وفقرا :

ألا هَلْ إلى الزهراء أوبةُ نازحٍ
تقضَّى تنائيهـــا مدامعَه نَزْحا
مقاصير ملك أشرقت جنباتهـــا
فخلنا العشاء الجوْن[1] أثناءها صُبحا
يمثل قرطيهـــا لى الوهم جهرة
فقُبَّتَهَا ، فالكوكبَ الرّحْب ، فالسّطحا
محل ارتياح يذكر الخـــلد طيبُه
إذا عزّ أن يَصْدى[2] الفتى فيه أو يضحى

(١) الجون : الأسود .
(٢) يعطش .

هناك الجمامُ[1] الزرقُ تَنْدى حِفافُها[2]

ظِلالٌ عهدْتُ الدهرَ فيها فتًى سمْحا

تعوّضت من شدْو القيان خلاقها

صَدَى فلوات قد أطار الكَرَى ضبحا[3]

إن هذا العمل الذى شهد لأمويى الأندلس بالبراعة فى الهندسة والمعمار والفنون بمختلف أنواعها ، وتلك الأموال الطائلة التى أنفقت بسخاء على بنائها لخير دليل وأسطع برهان على ما وصلت إليه بلاد الأندلس من عز ، وثراء أيام الناصر .

على أننا لا ننسى أن نذكر فى هذا المقام ذكر حملة المعارضة التى قادها فقيه ورجل اشتهر بالورع والتقوى ، هو منذر ابن سعيد البلوطى الذى ولاه الناصر إمامة الصلاة فى مسجدى قرطبة ، والزهراء بعد بناء مسجدها ، فلم يخفه قوة السلطان ، ولم يجبن عن قول الحق ، فانتقد تصرف الخليفة علنا متهما إياه بأنه بذل الأموال الضخمة فى بناء المدينة ، مما شغله عن مباشرة أمور الدولة .

(١) جمع جمة وهو اجتماع الماء وغزارته . (٢) الجوانب .

(٣) الضبح هو صوت الخيل ، وهنا استعماله مستعارا للأصوات الأخرى .

انهيار الزهراء :

على الرغم من شهرة الزهراء التى طبقت الآفاق ، وسرت فى الخافقين رافعة علم الثروة الفنية الضخمة على يد الفنانين العرب فى أبنيتها وزخارفها ، وأبهتها وعلى الرغم من توالى العناية بها وخاصة فى عهدى الناصر ومن بعده ابنه الحكم ، فإنها لم تعمر طويلا ، بل بدأ الذبول يمشى إليها ، والخراب يطرق أبوابها شيئاً فشيئاً ، حتى دكت معالمها فى عهد محمد بن هشام بن عبدالجبار ابن عبد الرحمن الناصر الذى خلع الخليفة المؤيد بن الحكم المستنصر سنة تسع وتسعين وثلاثمائة هجرية ، وخرب الزهراء وعاد إلى قرطبة متخذا إياها دارا لإمارته ، وهكذا اندثرت معالمها ، وصار الناس لا يعلمون من أمرها شيئاً ، اللهم إلا ما تحويه بطون الكتب ، وظلت أنقاضها تبكى عزها الذاهب من يوم أن امتدت إليها أيدى المعتدين حتى سنة ١٩١٠ م فتوالت الحفائر الأثرية تكشف عن جمالها المطوى أو تاريخها المظلوم .

(ب) الزاهرة :

لم يقتصر بناء المدن وتشييد الأبنية والقصور على الأمراء

والخلفاء ، بل قام به أيضا ذوو الحول والطول ، والسلطان ، ممن دانت لهم الدنيا ، وقبضوا على أعنة السلطة والحكم .

فهاهو ذا الحاجب المنصور بن أبى عامر الذى استفحل أمره ، وذاع صيته ، وجمع السلطة فى يده ، وأصبح صاحب الكلمة النافذة فى الأندلس ـ بعد أن حجر على الخليفة الأموى هشام ـ سمت نفسه إلى ما كانت تسمو إليه نفوس الملوك والخلفاء من بناء مدن ، وبقاع ، تحمل مع سير الزمان أسماءهم ، وتبقى مع مرور الأيام تشيد بذكرهم ، فارتاد موضعا فى سنة ثمان وستين وثلاثمائة هجرية شرقى قرطبة ، وقام ببناء مدينة سماها « الزاهرة » ، واستغرق بناؤها حوالى السنتين ، وشيد لنفسه بها قصرا فخما انتقل إليه سنة سبعين وثلاثمائة ، واتخذ بها الدواوين ، والأعمال ، وقامت بها الأسواق ، واتسعت بها المرافق والأرزاق ، وأقطع ما حولها لوزرائه ، وكتابه ، وخاصته وحجابه وقواده ، فابتنوا بها الدور الفخمة ، وأنشأوا بها البساتين النضرة ، واتسع البناء حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ، وقد ملأها المنصور بجميع أمتعته ، وأسلحته ، وأمواله .

ويقول المقرى . . واشتد ملك محمد بن أبى عامر منذ نزل قصر الزاهرة ، وتوسع مع الأيام فى تشييد أبنيتها ، حتى كملت

أحسن كمال ، وجاءت فى نهاية الجمال ، نقاوة بناء ، وسعة فناء ، واعتدال هواء رق أديمه ، وصقالة جوٍّ اعتل نسيمه و نضرة بستان ، وبهجة للنفوس فيها افتنان ، وما أحسن قول صاعد اللغوى البغدادى حين يمدح المنصور ، ويذكر ما فى الزاهرة من حسن وجمال فى القصيدة التالية :

يأيهـــا الملك المنصور من يَمَنٍ
والمُبْتَنِي نَسباً غـــير الذى انتسبا
بغزوة فى قلوبِ الشِّرْكِ رائعــةٍ
بين المنايا تُنَاغى[1] السُّمْرَ[2] والقُضُبَا[3]
أما ترى العينَ تجرى فوق مرمرها
زهوا فَتُجرى على أحفافها[4] الطربا
أجْرَيْتها فطَمَا[5] الزاهى بجَرْيتهـــا
كما طموْتُ فسُدْتَ العُجم والعربا

---

(١) ناغاه : حادثه وناجاه وكلمه بما يهواه .
(٢) الرماح .
(٣) السيوف .
(٤) جوانبها .
(٥) علا وارتفع .

تخال فيـــــه جنود الماء راقلة
مُستلئمات تريك الدّرع والْيَلَبا[1]

تحفهـــا من فنون الأيك زاهرةٌ
قد أورقت فضةً أو أورقت ذَهبـــا

بديعـــةُ الملكِ ما ينفكُّ ناظرها
يتلو على السّمع منهـــا آية عجبا

لا يحسن الدهر أن يُنْشى لهـــا مثلا
ولو تعنّت فيها نَفْسَه طلبـــا

وأنشأ المنصور بالقرب من الزاهرة ضاحية صغيرة أقام بها قصورا لراحته وقد عرفت باسم « المنية العامرية » .

ويذكر المؤرخون أن الشاعر أبو المطرف بن أبى الحبّاب دخل على المنصور يوما فى أحد قصورها ... « والروض قد تفتحت أنواره وتوشحت أنجاده وأغواره ... » فرأى ثلاث سوسنات ، ثنتان منها قد تفتحا وواحدة لم تتفتح فأوحى إليه منظرها بالقصيدة التالية :

---

(١) اليلب : الترس .

لا يومَ كاليوم فى أيامكَ الأُول

بالعامرية ذات المـاء والظَّلَل

هواؤها فى جميع الدهر معتدل

طيبا وإن حلّ فصلٌ غيرُ معتدل

ما إن يبالى الذى يحتلّ ساحتها

بالسعد ألا تَحُلَّ الشمسُ بالحمل (١)

كأنما غرست فى ساعةٍ وبدا السوْ

سان من حينه فيهـــــا على عجل

أبدت ثلاثا من السوسان مائلةً

أعناقهن من الإعياء والـكسل

فبعض نوارها للبعض ينفتح

والبعض منغلق عنهن فى شُغُلِ

كأنما راحة ضَمَّت أنَامِلهـــــا

من بعد ماملئت من جودك الخَضِلِ (٢)

---

(١) يقصد فصل الربيع .

(٢) شبه جود المنصور بنبت خضل أى كثرت أوراقه .

وأختها بسطت منهـــــا أناملها

ترجو نداك كما عودتهـــــا فصِلِ

ويسوقنا الحديث عن العامرية إلى ذكر مناظرة طريفة حدثت فى حضرة الحاجب المنصور بين أديبين هما ابن العريف النحوى وصاعد اللغوى البغدادى ، فقام ابن العريف ينشد مخاطبا المنصور من أبيات :

فالعامرية تُزْهى على جميع المبانى

وأنت فيها كسيف[1] قد حلّ فى غمدان[2]

فقام صاعد فقال : « أسعد الله تعالى الحاجب الأجلّ ، ومكن سلطانه ، هذا الشعر الذى قد أعده وروّى فيه أقدر أن أقول أحسن منه ارتجالا ، فقال له المنصور . قل ليظهر صدق دعواك ، فجعل يقول من غير فكرة طويلة » :

يأيهـــا الحاجب المعتـــلى على كيوان

ومَنْ به قد تناهى فخـــارُ كل يمان

(١) يقصد سيف بن ذى يزن ملك اليمن .

(٢) قصر معروف باليمن .

العامرية أضحت كجنة رضوان
فريدةً لفريدٍ ما بين أهل الزمان

ثم مرّ فى الشعر إلى أن قال فى وصفها :

والطير يخطب شكرا على ذُرا الأغصان
والقَضْب[1] باتقف سكرا بمُيَّسِ القضبان
والروض يفتر زَهواً عن مَبْسِم الأقحوان
والنرجس الغض يرنو بوجنة النعمان
وراحة الريح تَمْتا[2] رُ نفحة الريحان
فدُمْ مدى الدهر فيها فى غبطةٍ وأمان

فاستحسن المنصور ارتجاله ، وقال لابن العريف : مالك فائدة فى مناقضة منْ هذا ارتجاله ، فكيف تكون رويته ؟ فقال ابن العريف : إنما أنطقه وقرب عليه المأخذ إحسانُك ، فقال له صاعد : فنخرج من هذا أن قلةَ إحسانه لك أسكتتك وبعدّت عليك المأخذ ! ! فضحك المنصور وقال : غير هذه المنازعة أليق بأدبكما » .

(١) القضب كل شجرة طالت وسبطت اغصانها .
(٢) جعل ما يعلق بالريح من طيب رائحة الريحان جلبا لها .

زوال الزاهرة :

« لم تعمر الزاهرة طويلا ، فقد تنبأ لها المنصور بالخراب والدمار » ، ويقص علينا المؤرخون أن ابن أبى عامر كان فى قصره يوما . . . فتأمل . . . ونظر إلى مياهه المتدفقة ، وأنصت إلى طيره المغرد ، وملأ عينه من جمال منظره ، وحسن رواقه ، والتفت فى الزاهرة من اليمين إلى الشمال فتجهم وجهه ، وانحدر دمعه وقال :

« ويل لك يازاهرة ! فليت شعرى من الخائن الذى يكون خرابك على يديه عن قريب » فقال بعض جلسائه من خاصته « ماهذا الكلام الذى ماسمعناه من مولانا قط ! وما هذا الفكر الردىء ! الذى لا يليق بمثله شغل البال » فرد قائلا « والله لترون ما قلت ، وكأنى بمحاسن الزاهرة قد محيت ، وبخزائنها قد نهبت ، وبساحتها قد أضرمت بنار الفتنة والهبت » .

ولقد تحققت نبوءة المنصور ، ففى سنة أربعمائة تقريبا من الهجرة ، دكّ محمد الثانى الخليفة الأموى هذه المدينة الجميلة حين دك الزهراء .

وهكذا عجل بنهايتها فأصبحت فى خبركان ، ونعق البوم فى جنباتها ، بعد أن كانت حديث الناس ، ومقصد القاصدين ، وكعبة الوافدين ، ومعقد آمال المؤملين ، زهاء ثلاثين عاما .

الثقافة

إذا كانت القاهرة وبغداد والإسكندرية قد حملت كل واحدة مشعل الثقافة والنور فى الشرق ، وأصبحت كل مدينة من هذه المدن مركز إشعاع للعلوم والحضارة الإنسانية « فإن الشقيقة قرطبة كانت تحمل نفس المشعل فى الغرب » واحتلت مركز الصدارة بين دول أوربا وإفريقيا « وغدت هذه العاصمة الغربية موطن رحل العلماء ، وموئل الساعين من طلاب العلم ورواد الثقافة . والباحثين عن المعرفة .

وطبقت شهرة جامعتها ومدارسها ومكتباتها الزاخرة الآفاق.. ونمت فيها العلوم والفنون . . . وبرز العلماء فى الفقه والحديث والتفسير ، واللغة والأدب ، والعلوم الرياضية من هندسة وحساب وفلك . ثم فى علوم الطب والموسيقى وغير ذلك من العلوم الوثيقة الصلة بحياة الإنسان .

وإذا كانت قرطبة من الناحية الجغرافية تعتبر قطعة من القارة الأوربية ، واعتبرت هى نفسها مستقلة — من الناحية السياسية — عن الشرق منذ أن وطئت قدم عبد الرحمن الداخل أرض

الأندلس .... إلا أنها كانت وطيدة الصلة به فى المجالين : الثقافى والعلمى . ومن يتصفح كتب التواريخ والتراجم الأندلسية يجدها مفعمة بالرحلات إلى بيت الله الحرام ، ثم مقابلة الشيوخ الفضلاء ، والعلماء الأذكياء .

ولم تكن الحواجز السياسية أو الحدود الجغرافية لتقف حجر عثرة دون أمانى هؤلاء الأندلسيين الراغبين فى المعرفة ، الطامحين إلى علم غيرهم من إخوانهم المشارقة . . . والشرق فى نظرهم — كمسلمين — مهبط الوحى ومثوى جسد الرسول الكريم .

هذا . ولم تمنع التقاليد السياسية بدورها تدفق العلماء الشرقيين إلى الأندلس يحملون التراث العربى . . نذكر من هؤلاء العلماء على سبيل المثال — لا الحصر — أبو على البغدادي الفقيه الأديب فى زمن الناصر .

وقد كان الأمراء والخلفاء يشجعون العلم والعلماء ، ويجمعونهم من الأقطار . ويغدقون عليهم العطايا والهبات ، مما كان له الأثر المحمود فى إقبال العلماء على الدرس والتحصيل ، وتشجيعهم على التأليف والابتكار .

المكتبات :

ورث الأمير الحكم عن أبيه الناصر عرشاً تليدا مؤثلا ، واتسم عهد هذا الأمير بالمحبة والهدوء والسلام ، نخمدت فيه الفتن الخارجية ، وقضى على المنازعات الداخلية . ونعمت البلاد إبان حكمه بالسكينة والاستقرار ، وكان الأمير الحكم نفسه يجنح إلى السلم .. ويميل بطبعه إلى العلم . . فكانت هذه الأسباب جديرة بخلق البيئة الثقافية والمكتبة الثقافية .

تذكر الروايات أن مكتبة هائلة تكونت فى قرطبة على عهد الأمير الحكم ، يقول أبو محمد بن حزم فى وصفها مانصه : « أخبرنى تليد الخصى — وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بنى مروان — أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفى كل فهرست عشرون ورقة ليس فيها إلا أسماء الدواوين » .

وكانت هذه المكتبة تفوق فى عظمتها مكتبات القاهرة وبغداد والإسكندرية بما كانت تحويه من الكتب النادرة . . وبلغ من حرص الحكم فى اقتنائه للكتاب أنه كان يعمل جهده فى أن يظهر الكتاب الحديث فى مكتبة قرطبة قبل أن يظهر فى موطن مؤلفه .

لقد ترامى إلى مسامعه أن أبا الفرج الأصفهانى — عالم العراق — ألف كتابه المسمى « بالأغانى » فبعث إليه سفيراً من سفرائه يحمل ألفا من الذهب الخالص ثمنا لهذا الكتاب . . فَيُبهر المؤلف ، ويُؤْخَذ ، لكرم الخليفة القرطبي ، وسخائه فى أعطيته ، ثم يسرع فيرسل إليه بالكتاب مصحوبا بقصيدة يطرى فيها الخليفة الأموى والبيت الأموى .

ومن العجيب أن هذا الأمير لم يكن جَمَّاعا للكتب فحسب .. ولكنه كان مولعا بالقراءة أشد من ولعه بجمع الكتب ،مشغوفا بالاطلاع شغفه باقتنائها ، ... إنه يقرأ جميع ماجمع من الكتب ، ويعلق عليها بخط يده « ويكتب على كل مُؤَلَّف اسم صاحبه وكناه وألقابه . واسم عائلته وقبيلته ، والسنة والمكان الذى ولد ومات فيه » وما يستتبع ذلك من قصص وحكايات صادفت حياة المؤلف .

ولقد كانت هذه التعليقات الحكمية موضع تقدير واستفادة العلماء الذين عاصروه وأتوا بعده ، فاعترفوا له بالعلم وسعة الاطلاع والدقة فى التصويب ؛ وقد جمع بداره من الحذاق فى صناعة النسخ ، والمهرة فى الضبط ، والإجادة فى التجليد الجم الغفير .

مكتبات أخرى .

إذا كان كما يقال : « الناس على دين ملوكهم » ، فإن هواية جمع الكتب واقتنائها كانت متأصلة في نفس الشعب الأندلسي ، حتى صار ذلك عندهم كما يحدثنا المقرى فى كتابه « نفح الطيب » من آلات التعيين والرياسة ، حتى إن الرئيس منهم الذى لا تكون عنده معرفة ، يحتفل أن تكون فى بيته خزانة كتب ، وليس إلا أن يقال : فلان عنده خزانة كتب . والكتاب الفلانى ليس عند أحد غيره ، والكتاب الذى بخط فلان قد حصله وظفر به».

قال الحضرمى : « أقمت بقرطبة ، ولازمت سوق كتبها مدة أترقّب فيه وقوع كتاب لى بطلبه اعتناء ، إلى أن وقع وهو بخط فصيح ، وتفسير مليح ، ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد فى ثمنه ، فيرجع إلىَّ المنادى بالزيادة إلى أن بلغ فوق حده ، فقلت له ياهذا . . . أرنى من يزيد فى هذا الكتاب حتى بلغه إلى مايساوى ، قال : فأرانى شخصاً عليه لباس رياسة . فدنوتُ منه وقلت له — أعز الله سيدنا الفقيه — إن كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده ، قال : فقال لى : لست بفقيه ، ولا أدرى مافيه ، ولكنى

أقمت خزانة كتب ، واحتفلت فيها ، لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقى فيها موضع يساوى هذا الكتاب ».. فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ، ولم أبال بما أزيد فيه . والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير .. قال الحضرمى : فأحرجنى وحملنى على أن قلت له — نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك « يعطى الجوز لمن لا أسنان له » وأنا الذى أعلم ما فى هذا الكتاب . وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندى قليلا ، وتحول قلة ما بيدى بينى وبينه » .

ومن طريف ما يحكى بما هو وثيق الصلة بموضوعنا هذا ما يروى من أن أبا الوليد بن رشد ، والرئيس أبا بكر بن زهر قد تناظرا يوما بين يدى ملك المغرب المنصور يعقوب .. فقال ابن رشد لمناظره ما أدرى ماتقول : غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها وإن مات بقرطبة مطرب ، فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية .. ثم قال : وقرطبة أكثر بلاد الله كتبا .

تشجيع الأمراء على علو البيئة الثقافية .

لم يكن جمع العلماء من شتى الأقطار . ولا جمع الكتب من

النواحى المتفرقة . . وتأسيس المكتبات العامة والخاصة مما شغل الأمراء والخلفاء وعظماء الدولة . . ولم يكن موقف هؤلاء من النهضة الثقافية والعلمية والأدبية موقفاً سلبياً ، مقتصراً على الهبات والأعطيات وجزيل الثوبات . . بل نرى بعضهم يشارك العلماء فى علمهم كالحكم الآنف الذكر ، ونرى البعض الآخر يشارك الشعراء فى شعرهم ، وفى وجدانهم وإحساسهم ويحلق معهم فى أجوائهم وأحلامهم ، وفى حبهم . . وقربهم وبعدهم . . . ومن هؤلاء الأمراء الشعراء :

١ — الأمير عبدالله — وقد ترجم له العلامة دوزى كثيراً من شعره ، ونقل عنه أنخل جو نثالث فالينثيا فى كتابه . . تاريخ إسبانيا الإسلامية .

٢ — أبو عبد الملك مروان . . وهو من شعراء بنى أميه البارزين ، وحفيد الخليفة عبد الرحمن الثالث . . وقد ظل هذا الأمير رهين السجن ستة عشر عاما كاملة . . وحقق ديوانه أستاذ الاستشراق فى إسبانيا المعاصرة السنيور نمارثيا غومث وترجمه إلى الإسبانية .

٣ — المستعين الخليفة الأموى ومن شعره يعارض هارون الرشيد فى قوله مَلَكَ الثَّلاَثُ الآنساتُ عنانى .

الأبيات قوله :

عجبا يهاب الليث حدَّ سناني
وأهاب لحظ فواتر الأجفانِ

وأقارع الأهــوال لا متهيبا
منها سوى الإعراض والهجران

وتملكت نفسي ثلاثٌ كالدُمى
زهر الوجوه نواعم الأبدان

ككواكب الظلماء لحْنَ لناظري
من فوق أغصانٍ على كثبان

حاكمتُ فيهن السُلو إلى الهوى
فقضى بسلطانٍ على سلطان

هذى الهلال وتلك بنت المشترى
حسناً ، وهذى أخت غصن البان

فأتحن من قابي الحمَى وتركنني
في عزِّ مُلكي كالأسير العاني

لا تعذلوا ملكا تذلل في الهوى
ذُلُّ الهوى عِزٌّ وملْكٌ ثاني

ما ضَرَّ أني عبدهن صبابة
وبنو الزمان وَهُنَّ من عُبداني

إن لم أطع فيهن سلطان الهوى
كلفاً بهن فلستُ من مروانِ

وقد تلقف المغنون هذه الأبيات ، ووقعت منهم موقع القبول الحسن ، وغناها المغنون داخل بلاط الخلفاء ، وبين جنبات قصور الأمراء والعظماء . . وصار أهل الفن يدندنونها ويترنمون بها طيلة عصور القرون الوسطى ، ثم انتقلت الأغنية بألحانها إلى دولة البرتغال فى القرن التاسع عشر على يد السنيورا ميتشليس دى فاسكو تيللوس .

ويقول المقرى : وكان من أعظم الأسباب فى نساء ودولة المستعين أنه قال الأبيات التالية مستريحا بها إلى خواصه ، وهى :

حلفت بمن صلّى وصام وكبرا
لأغمدها فيمن طغى وتجبرا
وأبصر دين الله تحيا رسومه
فبدل ما قد كان منه وغيرا
فوا عجبا من عبشمى مُمَلَّك
برغم العوالى والمعالى تبربرا
فلو أن أمرى بالخيار نبذتهم
وحاكمتهم للسيف حكماً محرَّرا

فإما حيـاة تستلذ بفقدهم

وإما حِمـامٌ لا ترى فيه مأزرا

ومن الوزراء الذين عشقوا فن الأدب والشعر :

١ — الوزير أبو المغيرة بن حزم وزير المنصور بن أبي عامر وهو ابن عم أبي محمد بن حزم الفيلسوف القرطبي .. وقد ذكر لنا ابن بسام في كتاب « الذخيرة » الكثير من شعره الذي حمل به على ابن عمه الفيلسوف ، وقسا عليه فيه قسوة بالغة .. وسيأتي بعض ذلك في ترجمته .

٢ — عبد الملك بن جهور وزير الخليفة عبدالرحمن الثالث .

٣ — الوزير المصحفي وزير الحكم الثاني ثم وزير هشام الثاني .

وكلاهما كان ذواقا للأدب محبا للشعر .

ولم يكن الأدب والشعر ومجالس الأنس قاصرا على الرجل دون المرأة فقد تأرج الجو الثقافي القرطبي بأريج المرأة ... وظهرت في الآفاق القرطبية تنثر عطرها وطيب عرفها . . ومن هؤلاء النساء الأديبات اللائي ظهرن واشتهر أمرهن في المحافل القرطبية :

١ — عائشة بنت أحمد التى كانت مربية لولد المنصور ومؤدبة له .

٢ — ومريم ابنة يعقوب أستاذة الشعر والأدب .

٣ — ولادة بنت المستكفى التى ذاع صيتها ، وتغنى بجمالها رجال عصرها وخاصة أبو الوليد أحمد بن زيدون ـ كما سيأتى ذلك فى ترجمتها .

التعليم :

قد تدهش أيها القارئ ويتملكك العجب حينما تعلم أن الأندلس عاشت فى تلك العصور البعيدة لا تعرف الأمية ولا تعرفها الأمية .. فالمدارس الابتدائية كانت من الكثرة بحيث استوعبت جميع أفراد أمة الأندلس ، ولم يبق فيها مكان لأمية أمىٍّ بين المسلمين .. فكل مسلم يجيد القراءة ويحسن الكتابة ..

ووثب الحكم المستنصر بشعبه ثقافيا وثبةً ممتازة .. فأنشأ من هذه المدارس الابتدائية خمسا وعشرين مدرسة جديدة ـ وذلك عدا ما كان موجودا بها من هذه المدارس . . .
أما التعليم العالى ـ أو ما يعبر عنه فى عصورنا الحديثة بالتعليم

الجامعى فكان فى المسجد الجامع الذى كان يعتبر بمثابة الجامعة الحديثة أشهر جامعة فى العالم إذ ذاك . فمسجد قرطبة (حيث كانت تلقى المحاضرات) يتهافت عليه الطلاب من شتى أنحاء البلاد .. ليس فقط من إسبانيا الإسلامية بل من جميع أنحاء العالم الإسلامى والعالم المسيحى على السواء .. وكان يسود الجميع روح المحبة الصادقة والزمالة المخلصة .. وتؤكد الروايات أن من هؤلاء الرواد البابا سلفستر الثانى عشر الذى حج إلى قرطبة أيام أن كان راهبا ... ليتلقى العلم فيها ، وكان بعد ذلك من علماء البابوات وأعظمهم شأناً .

ومن بين العلماء الأفاضل الذين قاموا على تربية النشء وعكفوا على تعليمه فى العلوم العربية والإسلامية نجد أبا بكر ابن معاوية يأخذ حلقة لتدريس حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبا على القالى العالم البغدادى ، وصاحب كتاب « الأمالى » والذى وفد على الأندلس أيام الناصر يحاضر فى التاريخ العربى والآداب العربية . . ثم نجد ابن القوطية أستاذ اللغة والقواعد النحوية .

ويقول الأستاذ جوتنالث فالينثيا نقلا عن العلامة دوزى: إن المواد التى كانت تدرس فى التعليم (الجامعى) العالى هى كما يلى :

القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وتفسيره ، وشرح الحديث النبوى ، وعلم المواريث ، والفقه وأصول الفقه ، وجميع العلوم التى تتصل بالقرآن كعلم التوحيد ، وقواعد اللغة العربية ، وتاريخ العرب ، ثم النظم والنثر ، والطب والفلسفة ، وعلم النجوم والموسيقى . وكان للتلميذ الذى يأنس الأستاذ منه الكفاية ، ويلحظ فيه القدرة على التدريس ؛ إجازة مكتوبة ، وقد تطورت هذه الظاهرة فى أيامنا المعاصرة إلى الإجازات الأكاديمية الجامعية .

وحدة اللغة :

حينما فتح الله على المسلمين أرض الأندلس عاملوا السكان الأصليين معاملة كريمة ، فأبقوا على كنائسهم وأديرتهم ، وكفلت لهم الدولة حرية العقيدة وحرية تأدية الطقوس والشعائر الدينية حسبما تقتضيه القواعد الكهنوتية .

وقد عرف هؤلاء النصارى فى العصور الوسطى بالمستعربين — وما زالوا يعرفون به حتى اليوم ، وكانت اللاتينية هى اللغة التى يتكلمون بها ويتداولونها فيما بينهم ، ويؤدون بها شعائر دينهم .

أما العرب ومن تبعهم فكانت لغتهم هى العربية — لأنها لغة القرآن الكريم من ناحية ، ولغة الحكام الفاتحين من ناحية

أخرى .. وظلت الأمور تسير على هذا النهج ... العربية للعرب واللاتينية لأهل اللاتين حتى جاء عهد الأمير هشام الأول الذى خطا خطوة إيجابية فى سبيل توحيد اللغة . وكان مما فعله أن أصدر منشورا رسميا يحتم فيه ضرورة فرض تعليم اللغة العربية على المستعربين الذين يشاركون المسلمين فى مدارسهم ... وبعد ذلك بأمد قليل أصدر منشورا عاما إلى جميع السكان أيا كانت دياناتهم بضرورة تعلم اللغة العربية لتكون اللغة الرسمية ـ لأنها لغة الأمة الفاتحة الغالبة .

وقد أتت هذه الخطوات الإيجابية ثمراتها المرجوة فى وقت قصير . فأقبل أبناء الشعب على اختلافهم على اللغة العربية فيما يشبه النهم ، وبرع فيها أبناء اللاتين ، وتفوقوا فى نظم القصيدة العربية على أبناء الضاد أنفسهم وبلغ بهم الأمر أن صاروا مولعين بالتراث العربى من شعر ونثر . ونسوا لغتهم اللاتينية أو كادوا ، مما جعل المطران الفاروا يجأر بالشكوى لانتشار الثقافة العربية بين شبيبة النصارى ـ بحيث صار لا يروقهم إلا الشعر العربى ، ولا يتذوقون إلا القصيدة العربية والقصة العربية ، ولم يعودوا يقرأون إلا كتب المسلمين فى حين أنه كان من العسير أن يوجد أحد بين أفراد المسيحيين من يحسن كتابة رسالة إلى صديق أو قريب .

دور المستعربين فى الحياة الفكرية :

وقد لعب المتخصصون من هؤلاء المستعربين دورا هاما فى الحياة الفكرية والثقافية بحكم معرفتهم للغتين اللاتينية والعربية ، وكانوا أداة اتصال بين إسبانيا المسلمة وإسبانيا المسيحية .. وكانوا النواة الأولى التى أخرجت خبأها فى عهود تالية .

فلم يكد يأت عصر الفونسو العاشر الذى استحق بجدارة لقب « العالم » ــ فى نظر المؤرخين من الإسبان ــ حتى ازدهرت الحركة العلمية ازدهارا لا نظير له ونشطت حركة الترجمة بين اللغات نشاطا محمودا .. وأقبل العلماء من المسلمين والمسيحيين واليهود على أمهات الكتب الدينية والأدبية والتاريخية والعلمية والفلسفية يترجمونها بأمانة وإخلاص .

وقد عمل الفونسو ــ العالم ــ المسيحى على خطة الحكم ــ العالم ــ المسلم ، فجلب العلماء وشجعهم كما كان يفعل الحكم ، وشاركهم بنفسه ، واهتم بهم اهتماما بالغاً . وأقبل على ترجمة الكتب التى تحمل بين طياتها نتاج العقل الإسلامى إلى اللغة اللاتينية . وأسس أكثر من مركز ثقافى فى كثير من النواحى والجهات ، نذكر من هذه المراكز التى أنشأها الفونسو مدرسة

للترجمة في مدينة مرسية Murcia ثم معهدا لنشر الوعي الثقافي بين طبقات الشعب ، وعهد بالتدريس فيه إلى أساتذة من المسلمين ليدرسوا الطب وغيره من المعارف الإنسانية .

ومنذ أن احتل مدينة طليطلة الفونسو VI السادس سنة ١٠٨٦م صارت البؤرة التي تشع منها الثقافة الإسلامية واليهودية على الثقافة الإسبانية بخاصة والأوربية بعامة . ولا سيما بعد أن هرب إلى طليطلة عدد كبير من اليهود الذين فروا من الأندلس أيام بطش الخليفة عبد المؤمن سلطان الموحدين .

وفي سنة (١١٥٢ — ١١٦٢ م) رأى أسقف طليطلة أهمية إدخال النصوص العربية ضمن الدراسات العربية ، وكان لهذا الصنيع أثره في أوربا كما يفصح عنه Renan .

وفي ظل دون رايموند وتحت رعايته عملت مجموعة لا بأس بها من العلماء في معهد طليطلة ـ كمترجمين ومؤلفين ـ وتعرف هذه المدرسة اليوم باسم Coleglo de traductores toledanos أي معهد المترجمين في طليطلة .

وأكثر المؤلفات العلمية العربية ترجمت عن طريق هذا المعهد وهي كتب في الرياضة والفلك والطب والكيمياء ، والطبيعة والتاريخ . والتاريخ الطبيعي والميتافيزيقا وعلم النفس والمنطق

والأخلاق والسياسة .... والأرجانون لأرستطاليس ، وتعليقات وشروح الفلاسفة العرب مثل الكندى والفارابى وابن سينا والغزالى وابن باجه وابن رشد ... ونقلوا أيضا كتب اقليدس وجالينوس وبطليموس وأبيقور مع شروح وتعليقات الخوارزمى وابن سينا وابن رشد . إلخ ذلك .

ويذكر لنا السنيور جونثالث فالينثيا فى كتابه . . تاريخ الآداب العربية والإسبانية الطليعة الأولى من المترجمين الاسبان نذكر على سبيل المثال :

١ — دومنجو جونثالث ، وأصله من سيجوبيا Segovia وكان يعيش حوالى سنة ١١٨١ .

٢ — دون خوان المسمى بابن داود الإسرائيلى ، وموطنه طليطلة .

٣ — دون رامون . . وقد اشترك مع دون خوان فى ترجمة بعض النصوص العربية ... ترجمها دون خوان إلى اللغة الدارجة وترجمها دون رامون إلى اللاتينية كما حدث فى كتاب النفس لابن سينا ، وكتاب الفلسفة للغزالى .

٤ — خيرا ردو دى كريمونا Gerardo de cremona الطليانى الذى ترجم كتب الفلك والطب .

٥ — ميجل كوتو الإنجليزى ترجم إلى اللاتينية بعض أعمال ارسطاليس وابن سينا .

ومن الكتب الدينية التى أقبل المترجمون عليها مايلى :

١ — القرآن الكريم — ترجم إلى اللاتينية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر تحت رعاية بدرو الفينيرابلى .

٢ — مزامير داود عليه السلام — ترجمها إلى العربية نظما حفص القرطبى .

٣ — الأناجيل الأربعة — وقد عثر المستشرق الإسبانى سافدرا فى سنة ١٨٨٠ م على جزء منه فى كاتدرائية ليون . . وهناك بعض الوثائق الحية التى تعبر عن مدى تغلغل اللغة العربية فى نفوسهم ، من ذلك وثيقة محفوظة فى المكتبة الأهلية بمدريد ، تشتمل على ترجمة القانون المقدس إلى العربية ، وقد قام بترجمتها القس فسنسيو وكان ذلك فى سنة ١٠٤٩ .

ومن الكتب الأدبية — كليلة ودمنة والسندباد . . ويؤكد العلامة ميندس بلايو Mendes playo أن المؤرخين للآداب الإسبانية يعترفون بأن أمهات الكتب التى عالجت موضوع القصة فى الشرق وعبرت إلى أوربا المسيحية — عن طريق اللغة العربية ثلاثة كتب هى : كليلة ودمنة ، والسندباد . وبرلما وجوزفات .

وكتاب كليلة ودمنة ترك فى الآداب الإسبانية أثره الواضح ويتجلى ذلك فى مؤلفات لوليو ، والكوندى لوكانورا ، ودون خوان مانول ، ومؤلفات سانش دى فرسيال كما هو واضح ، من « كتاب » القطط والأمثال .

وأما السندباد فقد ترجم من العربية إلى الإسبانية بأمر من الأمير دون فدريك شقيق الملك الفونسو الحكيم سنة ١٢٥٣ أى بعد ترجمة كليلة ودمنة بسنتين .. وأول من أماط اللثام عن هذه الترجمة أما دور دى لوس ريوس .

المقامات :

يذكر الدكتور لطفى عبد البديع فى كتابه : « الإسلام فى إسبانيا » « أن الكثير من الباحثين قد لاحظوا أوجه الشبه القوى بين المقامات التى وضعها الحريرى وبين القصة التى تصور حياة الصعاليك Novela Picaresca . فأبو زيد السروجى بطل المقامات يمكن أن يعد طليعة لبطل القصة التى وضعها الكاتب الإسبانى ماثيو آلمان ، فكلاهما مثل حى للصعلكة وحياة الأفاقين » .

ألف ليلة وليلة :

يقول الدكتور لطفى : إن هذا الكتاب دخل الأندلس فى وقت مبكر ، وانتقل منها إلى إسبانيا المسيحية قبل أن يعرفه الغربيون من الترجمة الفرنسية التى وضعها جايان فى مطلع القرن الثامن عشر .

وورث الأدب الإسبانى بعض القصص الواردة فيه كقصة الجارية « تود » التى وردت فى مدونة الفونسو الحكيم ، وصاغ منها المسرح الإسبانى الخصب « لب دى ڤيجا » إحدى مسرحياته . وكذلك يرجع الباحثون بمسرحية « كالدرون دى لاباركا » التى عنوانها « الحياة حلم » إلى قصة من قصصه .

ثم يستطرد فيقول : ومما يدل على أن الكتاب كان شائعا بين الناس فى آخرة العهود الإسبانية الإسلامية ، أن بعض قصصه قد رواها الموريسكيون باللغة الأعجمية التى كانوا يكتبون بها كقصة «قصر الذهب » وما إليها .

وحدة المذهب :

إذا كان الأمويون قد حكموا الأندلس سياسيا ، فإن مالك ابن أنس ـ إمام دار الهجرة ـ قد حكمها عن طريق مذهبه . .

وقد أدخل موطأه الذى يعتبر أول كتاب جُمع فى الإسلام بعد القرآن الكريم .. أدخله زياد بن عبد الرحمن اللخمى المعرف بشبطون .

يحكى أنه خرج حاجا إلى بيت الله الحرام مع بعض الشيوخ الأندلسيين أيام هشام بن عبد الرحمن ، فسمعوا من مالك وأعجبوا بفضله وعلمه ، فأحضر زياد معه كتاب « الموطأ » .. وأخذه عنه يحيي بن يحيي الليثى ـ وكان وجيها عند الأمراء مسموع الكلمة فيهم ـ وتولى بنفسه نشر هذا المذهب .

وقد شجع الأمراء المروانيون من جانبهم مذهب مالك دون غيره من المذاهب الإسلامية الأخرى التى ظهرت إلى الوجود فى القرن الثانى من الهجرة كمذهب أبى حنيفة الذى كان يسود العراق موطن خصومهم السياسيين من بنى العباسى. وجاء إيثارهم لمذهب مالك كنيتجة لما طمحوا إليه من الاستقلال السياسى ... فكانوا لا يولون القضاء — وهو أخطر منصب فى الدولة بعد الخلافة — إلا من كان على مذهب مالك بن أنس إمام دار الهجرة . . والذى أصبح بمثابة المذهب الرسمى لدولتهم .

وينقل إلينا المقرى فى كتابه « نفح الطيب » والحميدى، فى كتابه « جذوة المقتبس » نقلا عن الفقيه أبى محمد بن حزم فى

أسباب انتشار مذهب مالك بالأندلس ما نصه: مذهبان انتشرا فى بدء أمرهما بالرياسة والسلطان ، مذهب أبى حنيفة بالعراق ، فإنه لما ولى القضاء أبو يوسف — تلميذ أبى حنيفة — كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية ، فكان لايولى إلا أصحابه والمنتسبين لمذهبه .... ومذهب مالك عندنا بالأندلس ، فإن يحيي بن يحيي كان مكينا عند السلطان مقبول القول فى القضاة . وكان لايلى قاض فى أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره ، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا فأقبلوا على مايرجون أغراضهم به ... على أن يحيي لم يل قضاء قط ، ولا أجاب إليه ، وكان ذلك زائدا فى جلالته عندهم ، وداعيا إلى قبول رأيه فيهم . . .

وإذن فمن الممكن أن يقال : إن الأندلسيين — بعد كل ماتقدم — درجوا على مذهب مالك يدفعهم إليه عاملان قويان .... العامل الأول هو تشجيع الأمراء الأمويين على التمذهب بهذا المذهب حرصاً منهم على الوحدة المذهبية والاستقلال المذهبي بعد استقلالهم السياسى وإنهاء تبعية الأندلس للخلافة الشرقية .. والعامل الثانى أن منصب القضاء — وهو كما ذكرنا — لايولاه إلا من كان على مذهب مالك .

حقيقة عرف الأندلسيون فى مستهل حياتهم مذهب الأوزاعى، ولكنهم مالبثوا أن تركوه بعد أن أثنى زياد بن عبد الرحمن على مالك أمام هشام بن عبد الرحمن، وذكر من سعة علمه وفضله وجلالة قدره ماجعله يجله ويسهر على نشر مذهبه.

وقد عرف بعض الشيوخ الأجلاء من المذاهب الأخرى غير مذهب الأوزاعى، ولكن هذه المعرفة كانت أشبه بسحابة الصيف، فما تكاد تمر إلا وتنجلى، فتتحدث كتب التواريخ أن منذر بن سعيد - كما سيأتى فى ترجمته - كان وثيق الصلة بمذهب أهل الاعتزال، وكان يعمل به فى خاصته وأهل بيته.. فإذا ما جلس للقضاء والفتيا بين الناس كان لا يفصل بينهم إلا بما يقضى به مذهب مالك ولم يجعل لمذهبه الشخصى أى أثر فى حياته الرسمية.

وابن حزم اعتنق فى بدء حياته الفقهية مذهب الإمام الشافعى، ولكنه ما لبث أن تركه واعتنق مذهب داود بن على الظاهرى.. وتبنى ابن حزم مذهب داود ووُسِمَ به، وانتقلت الظاهرية من المشرق إلى المغرب على يديه ونافح عنها فى غير هوادة مما أثار عليه علماء عصره.. وأبو عبد الله بن مسرة الذى كان يشتغل بعلم الباطن، وصار له أنصار وأتباع..

وسيأتي الحديث مفصلا عن ابن حزم وابن مسرة عند الحديث عنهما .

القرآن والعلوم الشرعية :

عُنى الأندلسيون بالعلوم القرآنية عناية بالغة .. ففي التفسير يعتبر ابن عطية أول فقيه عمل على تنقية الدخيل وإزالة الإسرائيليات الوافدة على التراث الإسلامي من اليهود والنصارى الذين اعتنقوا الدين الإسلامي ، ثم بعد اعتناقهم له تقبَّل فقهاء الإسلام ثقافاتهم الموروثة بقبول حسن ونية صادقة .. ولكن لم يتنبه إلى هذا الخطر الدخيل على الثقافة الإسلامية إلا أهل الأندلس ، وفي مقدمتهم ابن عطية الذي نسج على منواله أبو عبد الله القرطبي الذي يقول عنه أبو محمد بن حزم « إنه لم يؤلف في الإسلام مثله » .

الحديث :

وأما الحديث فكانت روايته عندهم بمكان عظيم . وأقبل علماؤه على موطأ مالك يشرحونه ويعلقون عليه ويتفقهون بفقهه .. ومن هؤلاء نذكر القاضي أبا الوليد الباجي صاحب

كتاب « المنتقى » فى شرح الموطأ .. وقد ذهب فيه مَذْهَبَ أهل الاجتهاد .. ومنهم أبو الحسن على بن القطّان القرطبي وله فى تفسير الغريب ورجال الحديث المصنفات .. ومنهم بَقِى بنُ مخلد صاحب المصنف الكبير الذى رتبه على أسماء الصحابة وغيرهم كثير .

النحو :

وأما علم النحو فقد حفظ الأندلسيون مذاهبه كما تحفظ مذاهب الفقه ، والعالم الذى لا يكون متمكنا من هذا العلم بحيث لا تخفى عليه غرائبه وشوارده لا يكون جديرا باحترامهم ، ولا مستحقا للتمييز ، ولا سالما من الازدراء ... هذا رغم كثرة الانحراف فى ألسنتهم ـ سواء عند العامة منهم أو الخاصة ـ عما تقتضيه قواعد اللغة ، ومن طريف ما يروى المقرى عن لحن الأندلسيين « لو أن شخصا من العرب سمع كلام الشلوبين إمام النحو وهو يقرأ درسه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذى فى لسانه » .

الفقه :

وأما الفقه ، فكان من أول العلوم التى شغلت بال الأندلسيين ، فألفوا فيه التواليف المفيدة .. ومن الكتب المعتمدة عندهم

كتاب « التهذيب » للبرادعى السرقسطى ، وكان يطلق على هذا المؤلف اسم « الكتاب » كما يذكر ابن سعيد .

وكان الفقيه عندهم معظم لدى الخاصة والعامة ، يشار إليه ، ويحال عليه ، وينبه قدره وذكره عند الناس، ويكرم فى الجوار كما يكرم فى البيع والشراء ، وكان الأندلسيون يطلقون كلمة « فقيه » على من يريدون تعظيمه ، فيسمون الأمير العظيم فقيه .. ويطلقون على الكاتب والنحوى واللغوى فقيه ، لأنها عندهم من أرفع السمات .. ومنصب القاضى يعتبر من المناصب الهامة فى الدولة فهو الذى يفصل بين الناس فى قضاياهم ، ويقوم بالحكومة فى دمائهم . وإليه ترجع رعاية الأيتام والأحباس وإقامة الحدود .

الفلسفة — المنطق :

إن من يتتبع تاريخ الحركة الفكرية فى الأندلس يبصر أنها لم تكن تسير على نسق موحد بل كانت تخضع عندهم لاعتبارات دينية وسياسية ، وكان الحكم المستنصر صاحب اليد الطولى فى بعث الحياة العقلية فى الأندلس ، وجمع من العلماء والكتب والمصنفات القديمة ما كاد يضاهى به الخلفاء العباسيين . . .

ولم يلبث هذا النشاط الحيوى أن انطفأ شعاعه بعد أن أحرق المنصور كتب القدماء وخاصة ما يتعلق بالمنطق والتنجيم .. وميزها — كما يقول المؤرخون — من الكتب المباحة وأمر بإحراقها وإفسادها ، فأحرق بعضها وهيل عليها التراب والحجارة وغيرت بضروب التغيير .. وقد فعل ذلك تقربا منه إلى العامة .. وفى ذلك يقول المقرى «وكل العلوم عندهم — أى عند الأندلسيين — لها حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم فإن لهما حظاً عظيما عند الخاصة ، ولا يتظاهر بهما خوف العامة ، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه ، فإن زل فى شبهة رجموه بالحجارة ، أو أحرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان ، وكثيرا ما يأمر ملوكهم إحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت ، وبذلك تقرب المنصور بن أبى عامر لقلوبهم أول نهوضه وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك فى الباطن »

وقد أفضت عملية إحراق الكتب وإتلافها إلى خمول الحركة الفكرية نوعا ما ، وتوارى المشتغلون بها بعيدا عن الأنظار ... وقدر لبعض هذه الكتب أن تفلت من الدمار الشامل ، ووجدت فى رحاب ملوك الطوائف من أمثال ابن هود صاحب سرقسطة

ما أذكى شعلتها مرة أخرى ، واشتهر فى العالم الإسلامى من الفلاسفة ابن باجه الذى له من الكتب والشروح والتعليقات على كتب الأقدمين ما يعتبر فخرا لأمة الإسلام ، وما أنار السبيل أمام أوربا ، فمن هذه الكتب والشروح شرح كتاب السماع الطبيعى لأرسطوطاليس ، وقول على بعض كتاب الآثار العلوية لأرسطوطاليس ، قول على بعض كتاب الكون والفساد لأرسطوطاليس ، قول على بعض المقالات الأخيرة من كتاب الحيوان لأرسطوطاليس ، قول فى ذكر الشوق الطبيعى وماهيته ، كتاب تدبير المتوحد ، وكتاب النفس . وغيرها .. وأبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل صاحب أبا يعقوب يوسف المنصور خليفة الموحدين . وهو صاحب الرسالة المشهورة برسالة حى بن يقظان التى قصد من ورائها اظهار ما بين الشريعة الإسلامية والحكمة من اتفاق ... وابن رشد أعظم فلاسفة الإسلام وأشهر من شرح فلسفة أرسطو .. وكان مولده ونشأته بقرطبة فقد ولد فى سنة ٥٢٠ فى قرطبة ومات بالمغرب سنة ٥٩٥ هـ . وتقلبت به الأحوال بعد أن ترك ثروة إسلامية فى العلوم العقلية والفلسفية ما جعل اسمه يبلغ من الشهرة عند الأوربين مبلغ أرسطاطاليس . . وأول من أدخل فلسفته

إلى أوربا ميخائيل سكوت سنة ١٢٣٠ . وحذا حذوه هرمان الألمان ، ولم يأت منتصف القرن الثالث عشر حتى كانت جميع كتب هذا الفيلسوف قد ترجمت إلى اللغة اللاتينية ، ومن هذا الطريق – طريق الترجمة – نفذت إلى أوربا . ومن الممكن أن يقال إن ابن رشد قد تخصص فى تلخيص وشرح كتب القدامى وخاصة أرسطوطاليس – ثم نراه يبسط آراءه الفلسفية فى كتب المؤلفين المسلمين من أمثال الإمام الغزالى الذى ألف كتابه المسمى بتهافت الفلاسفة ، فجاء ابن رشد وألف كتابا رد فيه على الغزالى وسمى كتابه بتهافت التهافت .. وعلى العموم يمكن أن يقال إن فلسفة ابن رشد تناولت مسائل كثيرة تندرج من أصل الكائنات إلى اتصال الكون بالخالق وعلاقة الإنسان بالمادة وخالق العالم . وظلت هذه الفلسفة الرشيدية تلقى صراعا ومقاومة من رجال الإكليروس وخاصة توماس الأكوينى مع أنه كان أكثر الناس تأثرا به إلى أن انتصرت فى كلية بادو بإيطاليا ولم ينتصف القرن الخامس عشر حتى صار ابن رشد صاحب السلطان المطلق فى كلية بادو والمعلم الأكبر دون منازع .

وقد لاقت الفلسفة الرشيدية مقاومة عنيفة ، فأنشئت محكمة التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة عندما خيف ظهورها بسعى تلاميذه ابن رشد وتلامذته تلامذة خصوصاً فى جنوب فرنسا وإيطاليا ، وقد أنشئت هذه المحكمة الغربية بطلب الراهب توركاند . .

قامت هذه المحكمة بأعمالها الإجرامية حق القيام . ففى مدة ١٨ سنة — من سنة ١٤٨١ إلى ١٤٩٩ — حكمت على ١٠ آلاف ومائتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا وهم أحياء فأحرقوا ، وعلى ٦ آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير . فشهروا وشنقوا ، وعلى سبعة وتسعين ألفا وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات مختلفة فنفذت .

وكانت وسائل التحقيق عند هذه المحكمة «المقدسة» وسيلة واحدة تلك هى أن يحبس المتهم ، وتجرى عليه أنواع العذاب المختلفة بآلات التعذيب المتنوعة إلى أن يعترف بما نسب إليه وعند ذلك يصدر الحكم ويعقبه التنفيذ .

قرر مجمع لاتران سنة ١٥٠٢ م أن يعلن كل من ينظر فى فلسفة ابن رشد ، وطفق الدومينيكان يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر فى كلامه شيئاً من الصناعة والعبادة . ولكن ذلك لم يمنع الأمراء وطلاب العلوم من تلمس الوسائل للوصول إلى شىء من كتبه وتحلية العقول ببعض أفكاره .

اشتدت محكمة التفتيش فى طلب أولئك المجرمين طلاب العلم والسعادة إلى كسبه و نيط به كشف البدعة والحكم فيها مهما اشتد خفاؤها : فى المدن . فى البعوث . فى السراديب . فى الأنفاق . فى المخازن . فى المطابخ . فى الغابات . فى الحقول . فوفت بما كلفت مع البهجة والسرور اللائقتين بأدعياء الغيرة على الدين .

وكان من نتيجة هذا العبث والاستهتار بحق الإنسان فى آدميته أن قرر مجمع «لاتران» أن يكون من وسائل الاطلاع على أفكار الناس الاعتراف الواجب أداؤه على المذهب الكاثوليكى أمام القسيس فى الكنيسة (أى الاعتراف بالذنوب طلبا لغفرانها ، فإذا ذهبت البنت أو الزوجة أو الأخت إلى الكنيسة لتعرف بين يدى القسيس يوم الأحد ، فيكون مما تسأل عنه عقيدة أبيها أو زوجها أو أخيها ، وما يبدو من لسانه فى بيته . ومايظهره فى أعماله بين أهله ، فإذا وجد القسيس متلقى الاعتراف شيئاً من الشبهة فى طلب العلم غير المقدس على من يسأل عنه رفع أمره إلى المحكمة .

وقد أوقعت هذه المحكمة من الرعب فى قلوب أهل أوربا ما خيل لكل من يلمع فى ذهنه شىء من نور الفكر إذا نظر حوله أو التفت وراءه أن رسول الشؤم يتبعه ، إذ أن السلاسل

والأغلال أسبق إلى عنقه ويديه ، حتى قال باغلباديس ما كان يقوله جميع الناس لذلك العهد : « يقرب من المحال أن يكون الشخص مسيحياً ويموت على فراشه » .

صناعة الشعر :

لم تكن القصيدة الشعرية إلا ديوانا للعرب يسجلون فيها أحداثهم ومشاكلهم وقد انتقلت القصيدة مع العرب أيام الفتوح حتى وصلت معهم إلى أرض الأندلس ، والقصيدة الكلاسيكية كما عرفها الأقدمون بأنها : كلام مفصل قطعاً متساوية الوزن متحدة الحرف الأخير ، وتسمى كل قطعة بيتا ، والحرف الأخير المتفق رويا ، ويسمى جملته قصيدته . وكل بيت مستقل عما قبله وبعده ، فيحرص الشاعر على استقلاله ، ويستأنف كلاما آخر ، ويستطرد للخروج من فن إلى فن ، ويراعى فيه اتفاق القصيدة فى الوزن حذر الخروج من وزن إلى وزن يقاربه ، وللموازين شروط وأحكام تضمنها علم العروض ، وهى أوزان مخصوصة تسمى البحور .

ولما فتح العرب إسبانيا صارت البيئة الأندلسية بمثابة البوتقة

التى انصهرت فيها العناصر بعضها مع بعض بحكم قانون التطور والتفاعل المتبادل... استحدث الأندلسيون فنا من الشعر كما يقول ابن خلدون فى مقدمته «سموه الموشح» ينظمونه أسماطاً أسماطاً، وأغصاناً أغصاناً، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد بيتا واحدا، ويلتزمون قوافى تلك الأغصان وأوزانها، وأكثر ماتنتهى إلى سبعة أبيات، ويشتمل كل بيت على أغصان بحسب الأغراض، وينسبون فيها ويمدحون كالقصائد.. والظاهر - فيما أرى - أن تقدم الموسيقى العربية من ناحية ووجود أغنيات شعبية كانت شائعة باللغة الرومانسية من ناحية أخرى كان كلاهما سببا فى خلق هذا اللون الجديد من الشعر فى البيئة الأندلسية، وخاصة إذا اعتبرنا أن أهم جزء فى الموشح هو الجزء الأخير الذى اصطلح عليه باسم « الخرجة » كان باللغة الرومانسية . . وتقوم من الموشحة مقام المطلع فى القصيدة، وأكثر ماتكون «الخرجة» فى لغة عامية أو أعجمية أما سائر أجزاء الموشحة فهو باللغة العربية .

ومن العلماء المشتغلين بالدراسات العربية المستشرق الإسبانى خوليان ريبيرا الذى كان أول من ذهب إلى أن الموشحة شعر عربى بنى على أغنية شعبية، ولما كانت نظريته تحتاج إلى برهان

لإثباتها ، فقد وقف الناس منها موقف الحذر ، حتى وقف اشترن في سنة ١٩٤٨ م على إحدى وعشرين خرجة باللغة الرومانسية في موشحات عبرية .

وأول من اخترع هذا اللون من الشعر مقدم بن معافر من شعراء الأمير عبدالله ابن محمد المرواني . وعنه أخذ ابن عبد ربه صاحب كتاب . العقد الفريد ، . واستظرفه الناس لسهولته . وأول من برع فيه عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح ، ثم جاء في دولة الملثمين الأعمى الطليطلي. ويحي بن بقي ، وعاصرهما أبو بكر الأبيض وابن باجة الذي يقول :

مالذّلي شربُ راح	على ربا من الأقاح	لولا هضيمُ الوشاح
إذا أتى في الصباح	أو في الأصيل	أضحى يقول
ماللشّمول	لطمت خدى	وللشمال
هبت فمالى	غصن اعتدال	ضمه بردى
ممـا أباد القلوبا	يمشى لنا مستريبا	يا لحظه رد توما
ويا لمـاه الشنيبا	برد غليـل	صب عليل
لا يستميل	فيه عن عهدى	ولا يزال
في كل حال	يرجو الوصال	وهو في الصد

واشتهر من بعدهم ابن شرف الدين ، والرويني ، وابن زهير الذي يقول :

ما للموله	من سكره لا يفيق	يا له سكران
من غير خمر	ما للكئيب المشرق	يندب الأوطان
هل تستعاد	أيامنا بالخليج	ولياليـنـا
أو تستفاد	من النسيم الأريج	مسك وادينا
أو يكاد	حسن المكان البهيج	أن يحيينـا
ونهر ظله	دوح عليه أنيق	مورق مينان
والمـاء يجرى	وعايم غريق	من جنى الريحان

ولما شاع التوشيح لسلاسته ، نسجت العامة على منواله ، ونظموا فيه بلغتهم من غير إعراب ، واستحدثوا فنا آخر سموه بالزجل ، وجاءوا فيه بالغرائب ، وأول من أبدع فيه ابن قزمان ـ وإن قيل قبله ـ وكانت أزجاله تروى ببغداد أكثر مما تروى فى المغرب ، ومن روائعه وصفه لتمثال أسد من الرخام يصب الماء من فيه على صفائح مدرجة من الحجر :

وعرين قام على دكان   بحال رواق
وأسد قد ابتلع ثعبان   فى غلظ ساق

وفتح فمه بحال إنسان فيه الفواق
وانطلق يجرى على الصفاح ولقى الصباح

وهذه الطريقة الزجلية هى فن العامة بالأندلس ، وهم ينظمونه فى سائر البحور الخمسة عشر بالعامية .

هذا ـ ولننتقل بالقارئ العزيز ونقدم له صفحة عن بعض الأعلام الذين ازدهرت بهم الثقافة الأندلسية والمجتمع الأندلسى .

منذر بن سعيد

قاضي الجماعة بقرطبة

كان ميلاد منذر سنة ٢٦٥ هـ فتعلم وتادب وبرع فى العلوم الشرعية واللغوية ، وألف كتبا جمة فى العلوم القرآنية والسنة النبوية ، كما ألف فى الزهد والتصوف ، ورد على أهل الأهواء والبدع .. وكان رحمه الله — خطيبا بليغا ، عالما بالجدل حاذقا فيه ، شديد المعارضة ، حاضر الجواب ، ثابت الحجة ، « ويقول عنه كتاب التراجم » إنه كان ذا شارة عجيبة ، ومنظر جميل ، وخلق حميد ، وتواضع لأهل الطلب ، وانحطاط إليهم ، وإقبال عليهم . لم يحفظ عليه جور فى قضية ، ولا قسم بغير سوية ، ولا ميل لهوى .

وظل منذر ردحا من الزمن بعيدا عن مسرح الحياة العامة وأضوائها ، قصيا عن بلاط الخليفة وصحبة السلطان ، لا يعرفه إلا خاصة أصحابه وأوفى خلانه ، وظل هكذا منطويا على نفسه حتى أتته الظروف السعيدة ، فصعد نجمه ، وظهرت شخصيته

فى الآفاق القرطبية .. كان ذلك اليوم المشهود ، يوم أقبل فيه شعراء ملوك الروم يحملون إلى الناصر هدايا الإمبراطور قسطنطين وأخيه ملكا الأمبراطورية الرومانية .. وجلس الناصر على كرسى الخلافة يحف به أعضاء البيت الأموى . وكان المشرف على حفل الاستقبال الأمير الحكم ولىّ العهد .. وأراد الخطباء والشعراء المثول بين يدى الخليفة العظيم وضيوفه ليشيدوا بذكره وليتغنوا بفضله ومآثره ، وكان الحكم قد رتب لهذه الساعة المجيدة صديقه الفقيه محمد بن عبد البر الكشكيشانى ، وما إن تقدمت خطاه ومثل بين يدى أمير المؤمنين حتى أخذته هيبة الموقف، وذهب ما كان قد زوّره فى نفسه من كلام وحيل بينه وبين ما كان يريد ، ثم سقط على الأرض مغشيا عليه .. عند ذلك اتجهت الأنظار إلى أبى على البغدادى إسماعيل بن القاسم القالى (صاحب كتاب الأمالى) وكان ضيفا على الخليفة وافدا عليه من العراق . لينقذ الموقف .. غير أنه ما كاد يبتدئ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى وقف ساكتا متفكرا .. ولم يستطع إتمام ما بدأ ... ولم يكن حظه من التوفيق بأحسن من حظ سلفه .

فلما رأى منذر بن سعيد ما حدث وكان حاضرا فى جملة

من حضر من الفقهاء قام من نفسه وأكمل افتتاحية القالى ، وانطلق فى بيانه كما ينطلق السهم من الرمية ... فما تلجلج ولا تلكأ حتى انتهى من خطبته . ولفت بلباقته وحسن تصرفه نظر الناصر إليه ، مما جعله يقول معلقا على ما حدث.. والله لقد أحسن ما شاء ، ولئن أخرنى الله بعد ، لأرفعنّ من ذكره » . واستدعى الناصر ابنه الحكم وأوصاه بأن يضع يده على منذر ويستخلصه لنفسه ، ويرفع من شأنه فولى قضاء قرطبة بعد وفاة القاضى محمد بن عيسى سنة ٣٣٩ هـ ولبث قاضيا حتى أدركته الوفاة سنة ٣٥٥ هـ .

أذكت هذه الحادثة مشاعر منذر فأنشأ يقول :

مقالٌ كحد السيف وسْط المحافل

فرَّقْتُ به ما بين حقّ وَباطِلِ

بقلب ذكى ترتمى جَمَراته

كبارقِ رعد عند رَعْشِ الأنامل

وقد حدّقت حولى عيونٌ أخالها

كمثل سهام أثبتت فى المقاتل

لخير إمام كان أو هو كائن
لمقتبل أَوْفِي العصور الأوائل

ترى الناسَ أفواجاً يَؤُمّون بَابَه
وكلّهم ما بَيْنَ راج وآمل

وُفُودُ ملوك الروم وسْطَ فنائه
مَخَافَةَ بأسٍ أو رجاءٍ لقائل

فعشْ سالما أقْصَى حياةٍ مؤملا
فأنت رجاء الكل خاف وناعلِ

ستحكمها ما بين شرق ومغرب
إلى دَرْب قُسْطنطين أو أرض بابل

* * *

كانت تغلب على منذر صفات الزهد والروع ، وكان إذا صعد المنبر أو خطب الناس نفذت كلماته إلى قلوبهم ، وفعلت فى نفوسهم فعل السحر . . . هذا إلى رقة فى العبارة ، وقوة فى البيان ، وتخير للألفاظ ، ومن قوله فى بعض خطبه التى كان بها يثير مشاعر سامعيه : « حتى متى أعظ ولا أتّعظ . وأزجر ولا أزدجر ،

أأدل على الطريق المستدلين ؟ وأبقى مقيما مع الحائرين ؟ ؟ كلا « إن هذا لهو البلاء المبين». « إنْ هِيَ إلاّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بها مَنْ تَشاء ، وتهدى بهـا من تشاء » اللهم فَرِّغْنى لما خَلَقْتَنى له ، ولا تَشْغَلْنى بما تكفّلت به لى ، ولا تحرمنى ــ وأنا أسألك . ولا تعذبنى ــ وأنا أستغفرك ياأرحم الراحمين» . وقد أكسبته هذه الخلال الحميدة الشجاعة فى القول والإخلاص فى العمل ، فلم يكن ليخشى فى الحق لومة لائم ، حتى ولو كان الذى عليه الحق قد أوتى من السلطان أعظمه ، ومن الجبروت أعزه . وقد نقلت إلينا الروايات التاريخية فيما روت عنه أن الخليفة عبد الرحمن الناصر احتاج إلى شراء دار لإحدى نسائه الكريمات عليه ، العزيزات لديه ، فاستحسن داراً فى الربض الشرقى لقرطبة ، يتصل حمام له غلة واسعة ، وكانت هذه الدار لأيتام فى حجر القاضى يدعون أولاد زكريا ــ أخى نجدة ، وأرسل الخليفة من قوّمها له وفقاً لرغبته الخليفة . ثم أرسل إلى وصى الأيتام يساومه على بيع ما تحت يده . . . . ولكن الوصى اعتذر بعدم إبرامه العقد معهم وأن ذلك موكول إلى أمر القاضى، إذ لا يصح بيع ولا شراء إلا بإذنه ومشورته فأرسل الخليفة إلى القاضى بعض رسله ليتفاوضوا معه فى بيع هذه الدار ... فلما

وقف على جلية الأمر ، وعلم رغبة الخليفة الأكيدة في شراء دار الأيتام هزته عاطفة الإيمان بالله فأنبأ الرسل بما يساير تعاليم الحنيفية ويتفق مع مصالح الأيتام بالمحافظة على أموالهم وحقوقهم فيقول لهم . . البيع على الأيتــام لا يصح إلا لوجوه ؛ منها الحاجة . ومنها الوهي الشديد ، ومنها الغبطة ، فأما الحاجة فلا حاجة لهؤلاء الأيتام إلى البيع ، وأما الوهي فليس فيها . وأما الغبطة فهذا مكانها فإن أعطاهم أمير المؤمنين فيها ما تستبين به الغبطة أمرت وصيهم بالبيع ، وإلا فلا » .

ويستمع الرسل إلى مقالة قاضيهم ويحرصوا أشد الحرص على تبليغ ما سمعوا إلى أمير المؤمنين حرفا حرفا وكلمة كلمة . . وعندها يتظاهر الخليفة بالزهد فيها والرغبة عن شرائها . . . ولـكن القاضي العادل الذكي يخشى أن تتحرك رغبته في شرائها ثانية ، فيلحق الأيتام من الأذى والضرر مالا يحبه الله ورسوله . ويسرع فيامر وصي الأيتام بهدم الدار وبيع أنقاضها . . فيفعل هذا ما يأمره به القاضي ويبيع الأنقاض بثمن يربي كثيراً على تقييم رسل السلطان ومقوميه ...

وحينما وصل إلى مسامع الخليفة ما صنع القاضي عز عليه ما آلت إليه من بوار وخراب . . فأمر بتوقيف الوصي الذي

أكد له أن القاضى هو الذى أمره بهدمها وبيع أنقاضها ، ولم يفعل هو ذلك عن أمره ، ومرة أخرى يبعث الخليفة إلى قاضيه الذى ولاه أمر الفصل بين الناس فيا يعن لهم من مشاكل وأقضيات ثم يسأله :

— ما الذى حملك على فعلتك ؟ التى فعلت؟

— إننى يا أمير المؤمنين لم أصنع شيئاً فيه إجحاف بحق الأيتام ولا ضيعت ما ولاك الله عليهم.. فلم آت منكراً من العمل، ولاوزراً فى الحكم ، وإنما يا أمير المؤمنين أخذت فيها بقول الله تعالى «أمَّا السفينةُ فكانَتْ لمسَاكينَ يعملون فى البحر فأردْتُ أن أعيبهَا وكان وراءَهم ملك يأخذُ كل سفينة غَصْباً» مقوّموك لم يقوّموها إلا بكذا، وبذلك تعلق وهمك، فقد نض فى أنقاضها أكثر من ذلك ، وبقيت القاعة والحمام فضلا ، ونظر الله تعالى للأيتام .

وما إن يسمع الخليفة هذا الصوت الذى يمتلىء حكمة وعبرة حتى ينصاع إلى قول الحق ، ويثوب إلى رشده ، وسابق إنصافه ولم يركب الشطط ، أو يسرف فى القول . وإنما ينطق

نطق من استبان له سبيل الهدى والرشاد فيقول : «نحن أولى من انقاد إلى الحق، فجزاك الله تعالى عنّا خيرا » .

هذا ومواقف منذر المشابهة تشهد بما كان له من عزة النفس وكرم الشمائل وخاصة مع من لهم السلطان والحكم .

* * *

ومنذر بن سعيد كغيره من فقهاء عصره يضربون فى كل فن بسهم وافر من المعرفة ... فهم فقهاء ... وهم كتاب ... وأيضاً فهم شعراء يتذوقون الشعر كما يتذوقه غيرهم من الشعراء ولو أنهم لم يبلغوا مبلغ من غلبت عليه نحيزة الشعر من الشهرة به والوقوف عليه . . . ومن النوادر التى إن دلت على شىء فإنما تدل على مقدار تذوقه للأدب فيحكى عن نفسه ويقول :

أتيت وأبو جعفر النحاس فى مجلسه بمصر يملى فى أخبار الشعراء حيث يقول :

خليلىَّ هل بالشام عينٌ حزينة
تبكى على نجد لعلى أعينها
قد أسلمَها الباكون إلا حمامة
مطوقة باتت وبات قرينها
تجُاوِبُها أخرى على خيزرانة
يكاد يدنيها من الأرض لينها

فقلت له : يا أبا جعفر ، ماذا — أعزك الله تعالى — يا تا يصنعان ؟ فقال لى : وكيف تقول أنت يا أندلسى ؟ فقلت له : بانت وبان قرينها — فسكت ، فما زال يستثقلنى بعد ذلك حتى منعنى من قراءة كتاب « العين . .

ومن نوادره التى تدل على سرعة خاطره ، وحدة ذكائه ، وروحه المرحة ، وتمكنه من الجواب ما يحكى أن بعض الأدباء كتب إليه :

مسألة جئتك مستفتيا

عنها وأنت العالم المستشار

علام تحمر وجوه الظبا

وأوجه العشاق فيها اصفرار ؟ !

فأجابه منذر .

احمر وجه الظبى إذ لحظه

سيف على العشاق فيه إحورار

واصفر وجه الصب لما نأى

والشمس تبقى للمغيب اصفرار

ويحكى عن نفسه فيقول : كتبت إلى أبى على البغدادى أستعير منه كتابا من « الغريب » .

بحق ريم مُهفهف وصدغه المتعطّف
أبعث إلى بجــزء من الغريب المصنف

فلما وصلت الرقعة إليه قضى حاجتى وأجابنى بقوله :

وحق در تألف بفيك أى تألف
لأبعثن بمـــا قـــد حوى الغريب المصنف
ولو بعثت بنفسى إليك ما كنت أسرف

* * *

لم تشغل منذر الحياة العامة ومخالطة الناس كما شغلت غيره ولم تلهه بحسنها وزخرفتها كما ألهت غيره وزخرفت له .. ومع أنه كان كثير الدعابة والفكاهة والتلطف مع الناس إلا أنه إذا أحس بما يخدش كرامته أودينه ثارت ثائرته ، ورد على نفسه بما يصونها ويحفظ سمعتها . . فإذا نطق نطق بالحق ، وإذا حكم بين الناس حكم بمـا أنزل الله ...

كان لمنذر ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ مذهبان . مذهب خاص به وبأهله والمقربين منه وهو مذهب أهل الظاهر .. كما تسربت إلى أفكاره بعض أفكار المذهب المسَرّى . . ولكن هذا المذهب الشخصى لم يجعل له أى أثر فى حياته القضائية « وإنمـا كان إذا جلس للقضاء وحكم بين الناس حكم بما يتفق مع مذهب

مالك بن أنس الذى ساد الأندلس والمغرب . وكان بمثابة المذهب الرسمى للدولة الأموية بالأندلس ومن الكتب النفيسة التى خلفها القاضى منذر « كتاب أحكام القرآن » وكتاب « الناسخ والمنسوخ » وغير ذلك فى علم الفقه وعلم الكلام .

محمد بن مسرة القرطبي :

ولد محمد بن مسرة القرطبي عام ٨٨٣ م . وتوفى والده وهو فى السابعة عشرة من عمره ، وكان يقطن بظاهر قرطبة ، ويعيش فى صومعته بعيداً عن العاصمة وضوضائها وجلبتها .. وكانت له فترة إقامة فى مدينة القيروان ، ويعتبره المؤرخون للحركة الثقافية فى الأندلس أول رائد للفكر الحر المنطلق ، وأول من عرف بالاشتغال بالفلسفة والمنطق .. وقد أفاض المستشرق الإسبانى آسين بلاثيوس فى كتابه ابن مسرة Ibn Masarra عن مدى تسرب الآراء الباطنية إليه ، كما أفاض فى بيان مدى الانعكاسات الأفلاطونية فى مذهبه ومقدار تفاعلها مع العناصر الإسلامية .

ومن الممكن أن نجمل آراءه التى ذهب إليها فيما يلى :

١ ــ إمكان اكتساب النبوة .

٢ ــ إرجاع تدبير العالم إلى العرش .

٣ — حرية الإنسان فى جميع أفعاله .
٤ — عدم إيمانه بعذاب الجحيم .

هذه هى القواعد والتعاليم المسرية التى عشقها بعض رجال الفكر فى الأندلس إبان العصور الوسطى ، وصار له تلاميذ يذهبون إلى ماذهب إليه ، وأشياع يوقنون بما آمن وأيقن به . . وكان من هؤلاء التلاميذ الأوفياء لمبادىء أستاذهم إسماعيل بن عبد الله الرعينى الذى كان يقطن مدينة المرية Almeria . وكان له أنصار وأشياع يعترفون بإمامته ، ويؤدون إليه الزكاة ... ومما زاد فى تعلقهم به وإيمانهم له أنه كان — الرعينى — يتنبأ بأشياء قبل وقوعها فتقع . . ومن مبادئه — التى تعتبر مخالفة لما عليه إجماع الفقهاء — القول بنكاح المتعة . . وهذا المبدأ من أهم الأشياء التى تمسك بها الشيعة الإثنا عشرية فى فقههم . ومن هؤلاء التلاميذ محمد بن إبراهيم بن شق الليل الذى كانت له مشاركة فى كثير من العلوم وعناية بأصول الديانات . وكان من مبادئه أنه يدين بالرجعة وقد احتفظ لنا ابن حزم فى كتابه « الفصل » بهذه الآراء وناقشها ورد عليها . .

كان مصير محمد بن مسرة كمصير كل مفكر حر لا يتقيد بما يتقيد به الفقهاء النصيون الذين يقفون عند الحدود الظاهرة

التى ترميها ألفاظ النصوص وليس هنا مكان شرحها أو الإفاضة فيها ـ فاتهم بالزندقة أو الإلحاد والمروق عن الدين .. وهى تهمة تقليدية يقلدها دوما مناوئوا الفكر للمفكرين .

وكان هناك من الأسباب والدوافع التى تذكى الإغراء به والوقيعة لدى أصحاب السلطان والسياسة .

فهناك من الأوضاع الاجتماعية والسياسية ما يكون سبباً فى كبت الفكر أو الحجر عليه ، وإن كان هذا الكبت وذاك الحجر ينتهى بانتهاء أسبابه . ودوافعه ... فعهد الأمير عبد الله كان يتسم بعدم الاستقرار لخروج الكثيرين من الثائرين والمتمردين الذين اصطنعوا الخلافات لأغراض شخصية أو قبلية ، هذا إلى خروج عمر بن حفصون الذى كشف القناع عن عقيدته فارتد عن الإسلام إلى المسيحية بعد أن ظل مدة طويلة يظهر فى ثياب إسلامية .

لهذا السبب أو لغيره حرص الأمير على وحدة الصف من الخلافات المذهبية التى ربما قد تتبلور وتأخذ شكلا مذهبيا عدائيا قد لا يتفق مع المصلحة العامة لا للإسلام ولا للمسلمين .

لذلك فكر ابن مسرة فى الهجرة عن وطنه واعتزام الحج إلى بيت الله الحرام وخرج مع القافلة يبتغى مكانا رحبا وينشد

الهدوء والسلام بعد أن اتهمه في دينه الفقيه أحمد بن خالد الذي كان يتمتع في قرطبة باحترام الخاصة والعامة .

ولما هدأت الأحوال ، وأحس هو من نفسه حنيناً إلى وطنه قفل راجعاً إلى قرطبة حيث توجد صومعته ، مواصلا جهده في إلقاء دروسه ومحاضراته وكانت طريقته في التدريس طريقة بارعة ورائعة .. واستعمل دهاءه وذكاءه في تدريسه لتلاميذه .. فيحكى عنه أنه قسم الطلاب إلى فريقين : فريق عادى يستعمل معه الطريقة السنية المألوفة للناس أجمعين ، وطريقة خاصة يستعملها حينما يخلو إلى فريق من أحبابه والمخلصين لمذهبه ، وهم الذين يكشف لهم النقاب عن خبيئة نفسه ويبوح لهم بمكنون أمره .

ولقد صادف الحظ المدرسة المسرية باعتلاء الحكم الثاني عرش الأندلس الذي يحكى عنه أنه كان واسع الأفق رحب الصدر .. وتمتعت الحياة الثقافية في عهده بحرية بالغة .. واختص هو بنفسه المدرسة المسرية وسمح لأفرادها بالظهور على المسرح دون وجل أو خشية ، وقد كان من تلامذة هذه المدرسة الأدباء والشعراء والمؤرخون والكتاب والقضاة وعلماء في العقيدة مهرة ممتازون على رغم حملة الدعاية العنيفة التي شنتها عليهم العناصر المعادية لمذهبهم من أمثال : محمد بن يبقى قاضي قرطبة ، والزبيدى النحوى ، والفقيه أبو عمر بن لوبى .

والظاهر أن هذه الحملة من جانب هؤلاء الفقهاء لم تسفر إلا عن نشاط جديد لهذا المذهب ، ففي عصر ابن حزم نجد الرعيني ـ السالف الذكر ـ يحمل لواء مذهبه ومن ورائه أهله وذووه ، حتى لقد حملت ابنته لقب Teologa أي المتألهة ، وكان من تعاليمه أنه كان يقول بالحب المطلق ، وبخلود العالم ـ ثم نجد الحكم بن منذر ابن سعيد البلوطي من عشاق مبادىء المدرسة المسرية ، ومما يذكر عنه أنه كان فقيها متكلما ، عالما بالأصول ، بارعاً في صناعة الطب .

وليس من اليسير أن نعرف بالضبط المصير الذي آلت إليه مدرسة ابن مسرة القرطبي بعد حامل لوائها « الرعيني » وخاصة بعد أن فعل المنصور فعلته بإحراق مكتبة الحكم التي كانت تضم بين أرففها الكثير من مؤلفات ابن مسرة الفيلسوف ـ تقربا منه إلى الشعب ـ ولكن الذي لاشك فيه أن أفكاره ومبادئه قد تسربت فيها بعد إلى مناطق كثيرة وأزمان متلاحقة أو متباعدة ، فمدينة المرية التي تبلورت في شكل بؤرة لطائفة الصوفية ، الذين تأثروا بتعاليم ابن مسرة نذكر منهم محمد بن عيسى الإلبيري وابن العريف الذي كان من تلامذة أبو بكر اليورقي والذي كان موطنه مدينة غرناطة ، وابن غازي وموطنه

الجزبى والذى أشعل نار الثورة ضد المرابطين ... ومنهم ابن العربى الذى تسربت عن طريقه البادىء المسرية إلى الشرق .

ويذكر بعض المؤرخين للتراث الإسلامى من المستشرقين الإسبان أن المتصوفين الإسلاميين لم يكونوا وحدهم هم الذين استفادوا من مبادىء هذه المدرسة بل تعدى ذلك بشكل واضح إلى الفلاسفة اليهود وغير اليهود الذين انتفعوا بتلك التعاليم .. ويذكرون من اليهود Avicebron ومن غير اليهود دومنجو جوثالث Domengo gonzaez الذى كان موطنه أرشذونة التابعة لسيجوبيا ، وروجيريو باكون ثم راموندو لوليو من مدينة طليطلة .

ومما يذكر بالحمد والثناء أن بعض المؤرخين لأصول الديانات حتى المسلمين قد احتفظوا فى كتبهم ببعض آثار ابن مسرة ، التى بنى عليها المستشرق الإسبانى أسين بلاثيوث استنتاجاته وأبحاثه العلمية نذكر منهم أبو محمد بن حزم القرطبى ، وسعيد الطليطلى ، والشهرستانى ، وابن أبى أصيبعة ، والقفطى وغيرهم .

زرياب الموسيقى :

بلغ عرب الأندلس درجة رفيعة من الكمال ، فى فنون العمارة

والزخرفة بمختلف أنواعها ، وكان لأساليبهم الفنية طابعا مميزا لها ، كما شغفوا بالموسيقى والغناء والرقص .

ولقد قرب الخلفاء والأمراء إليهم الفنانين ، لاسيما المغنين والموسيقيين ، وأغدقوا عليهم الأموال والعطايا فبرزت أسماء مغنين اقترنت بآثار لها فى حياة قرطبة ، أمثال « منصور اليهودى » ــ الذى ارتفع ذكره فى عهدى ، الحكم ثالث الملوك الأمويين بالأندلس ،وابنه عبدالرحمن الأوسط ــ و« زرياب الفارسى » ــ الذى وفد على الأندلس فارا من بغداد ــ فعلا ذكره ، واتسعت شهرته ، وكان ذا أثر اجتماعى لاينكر فى حياة الأندلس عامة وقرطبة خاصة .

وزرياب هذا فارسى الأصل ، ويسمى « أبو الحسن على بن رافع » ، «وقد أطلق عليه لقب زرياب ، لسواد لونه ، وفصاحة لسانه ، تشبيها له بطائر أسود حسن الصوت » .

لم يكن زرياب موسيقيا فحسب ، بل اشتهر كشاعر ، وأديب ملم بعلم الفلك ، وسير الملوك ، وكاجتماعى يعرف أخلاق الشعوب وطبائعها . . وكان حافظاً لكثير من الحكم والأمثال ، فصيحا حسن الصوت ، حلو الحديث .

درس الغناء على يد إسحاق الموصلى ؛ ويذكر المؤرخون قصة

فراره من بغداد وظهوره فى قرطبة فيقولون : طلب الخليفة هارون الرشيد يوما من إسحاق أن يأتى له بمغنٍّ متفوق فى الغناء ، ولو لم يكن قد اشتهر بفنه ، فذكر له تلميذه زرياب ، فأمره الرشيد بإحضاره ، فلما كلمه الرشيد رد عليه « بأحسن منطق ، وأوجز خطاب » . ولما سأله عن معرفته بالغناء قال : نعم ! أحسن منه ما يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه مما لا يحسن إلا عندك ، ولا يدخر إلاّ لك . فإن أذنت غنيتك مالم تسمعه إذن قبلك ، فأمر بإحضار عود أستاذه إسحاق ، فلما أدنى إليه وقف عن تناوله ، وقال لى « عود نحته بيدى وأرهفته أحكامى لا أرتضى غيره وهو بالباب ، فليأذن لى أمير المؤمنين فى استدعائه » فأمر بإدخاله إليه . فلما تأمله الرشيد ، وكان شبيها بالعود الذى دفعه ، قال له : ما منعك أن تستعمل عود أستاذك ؟ فقال : إن كان مولاى يرغب فى غناء أستاذى غنيته بعوده ، وإن كان يرغب فى غنائى فلا بد لى من عودى » فقال له : ما أراهما إلا واحدا ، فقال : صدقت يامولاى ؟ ولا يؤدى النظر غير ذلك ، ولكن عودى وإن كان فى قدر جسم عوده ومن جنس خشبه ، فهو يقع من وزنه فى الثلث أو نحوه ، وأوتارى من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها أناقة ورخاوة وبهاء ،

ومثلها اتخذتها من مصران شبل أسد ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها ، فاستبرع الرشيد وصفه ، وأمره بالغناء » .

فلما غناه طرب طرباً شديداً ، وأوصى به إسحاق وصاية عظيمة ، وأمره أن يعتنى به ، فتحركت عوامل الحقد والحسد فى نفس إسحاق ، ورأى أن زرياب أضحى منافساً خطيراً له ، ويكاد يذهب بمكانته وشهرته ، ورأى أن الأرض باتت لاتتسع لهما ، وعما قليل ستهبط أسهمه ، ويرتفع أسهم زرياب فى البلاط الخليفى وهذا مالا يصبر عليه ، فقال له « عما قليل تسقط منزلتى وترقى أنت فوقى ، وهذا مالا أصاحبك عليه ولو أنك ولدى ، ولولا رعي لذمة تربيتك لما قدّمت شيئا على أن أذهب نفسك .. فتخير فى اثنتين لابد لك منهما .. إما أن تذهب عنى فى الأرض العريضة لا أسمع لك خبرا ، بعد أن تعطينى على ذلك الأيمان الموثقة ، وأنهضك بما أردت من مال وغيره ، وإما أن تقيم على كرهى ورغمى مستهدفاً إلىّ . فخذ الآن حذرك ، ووالله لا أبقى عليك ولا أدع اغتيالك ، باذلا فى ذلك بدنى ومالى ، فاقض قضاءك » . . .

عند ذلك اختار زرياب الفرار بنفسه ، والرحيل إلى بلاد

الأندلس ، وكتب إلى الحكم كتابات يعرب فيها عن رغبته الملحة فى أن يندمج فى بلاطه . فاهتبل الحكم الفرصة ، ووجدفى انضمام زرياب إلى بلاطه كسبا عظيما للفن ، وأوفد منصور اليهودى لاستقباله ، ودخل زرياب بلادالأندلس تصحبه أسرته ، ولكنه علم بوفاة الحكم فأراد العودة إلى المغرب ، غير أن منصور اليهودى أشار عليه بأن يقصد عبدالرحمن الأوسط الذى خلف أباه ، والذى أراد أن يجعل من قرطبة بغداد ثانية تنافسها فى كل شىء ، فرحب به ترحيباً كبيراً ، وكتب إلى عماله أن يحسنوا لقاءه ، ويسهلوا له طريق الوصول إلى قرطبة ، ولما وصل أنزله منزلا كريما ، وبالغ فى الحفاوة به ورتب له راتباً سنوياً قدر بحوالى الثلاثة آلاف درهم ، كما منحه ضيعة كبيرة قدرت بحوالى الأربعة آلاف دينار ، زيادة على رواتب أخرى .

أحب عبدالرحمن زريابا ، وجعله القدم على جميع المغنين ، وعلت منزلته عنده ، وسما به ذكاؤه وعلمه ، إلى الحد الذى جعل الخليفة يؤاكله هو وأكابر ولده ، ويستمع إلى غنائه ، وإلى ما يقصه من أحوال الملوك ، والنوادر المستطرفة ، وما لبث أن ملك قلب الخليفة ، حتى أنه أمر بأن يفتح له باب خاص يستدعيه منه متى أراد .

وكان زرياب يعرف كما تقول الرواية : عشرة آلاف أغنية، يزعم أن الجن علمته إياها فى الليل.

ولقد أسس هـذا الفنان فى قرطبة مدرسة للموسيقى ذاع صيتها ، كما بحث فى طبيعة الأنغام ، وموارد الصوت البشرى بحثا جديا ، فجعل أوتار العود خمسة بعد أن كانت أربعة ، كما اتخذ مضرب العود من قوادم النسر بدل الخشب .

أثر زرياب فى حياة قرطبة خاصة والأندلس عامة ، فعلى الرغم من أن الفضل يرجع إليه فى تعليم الجوارى الغناء ، وعلى الرغم من أنه أصبح لفن الغناء والموسيقى على يديه مكان ملحوظ بين الفنون فى هذه البلاد ، إلا أننا نرى أنه بذّ الناس فى تهذيبه وفكاهته ، وأصبحت شهرته مضرب المثل ، وكان له أثر اجتماعى كبير فى حياة الناس فقد تأثر المجتمع فى قرطبة وخارجها بأساليبه فى الملبس ، والمأكل ، والعادات ، فطبع العصر بطابعه ، وأصبح مثلا يحتذى فى ذلك .

تحكم فى ابتداع الأزياء ، وحث الناس على تنوع ملابسهم تنوّعا يتناسب مع اختلاف الفصول ، وأبطل عادة كانت سائدة فى الأندلس وهى إعفاء الشعر ، وإسداله مفروقا إلى الحاجبين والصدغين .

ومن اداب المائدة ما سرى استعماله بين العام والخاص من أهل الأندلس فإليه ينسب استعمال أسمطة الطعام من الجلد ، وعنه أخذ الناس استعمال الأكواب الزجاجية ، وتفضيلها على أكواب الفضة والذهب .

كما ابتدع بالبلاد أنواعا من الطعام لم تكن موجودة من قبله .

وهكذا طبع زرياب العصر بطابعه وكان أثره واضحاً فى تطور حياة أهل قرطبة خاصة والأندلس عامة ، وبلغ من الشهرة درجة عظيمة ، جعلت اسمه باقياً ومقروناً بتطور الحياة الاجتماعية فى تلك البلاد .

الحاجب المنصور :

هو محمد بن عبد الله ... بن عبد الملك المغافرى ، كان جده عبد الملك من الوافدين الأوائل مع طارق بن زياد عند فتح الاندلس ، وقبيلة مغافر التى ينتهى إليها نسبه من أصل قحطانى يمنى ، كما كانت أمه أيضاً عربية من بنى تميم ، وفيه يقول الشاعر :

تلاقت عليه من تميم ويعرب ... شموس تلألأ فى العلا وبدور

من الحميريين الذين أكفهم
سحائب تهمى بالفدى وبحور

خرج أبو عامر إلى الدنيا فى قرية « تركش » إحدى قرى الجزيرة الخضراء جنوبى الأندلس ، وكان أبوه من العلماء الذين يقومون بالتدريس فى المسجد الجامع بقرطبة .

وارتحل أبو عامر حدثا إلى العاصمة ، والتحق بجامعها كطالب ينهل من منابع العلم المختلفة ، الدينية ، والعربية وغيرها ، وأظهر تفوقا على أقرانه ، ونبوغا بين أترابه ، واستطاع أن يجمع من المعرفة والثقافة ،ما أعده وصقلة وجعله يخطو فى الحياة بخطى ثابتة ذكية .

ولما شب عن الطوق ، ووصل إلى مرحلة الشباب ، اقتعد دكانا قريباً من قصر الخلافة يكسب فيه عيشه ، من كتابة الرسائل لمن يشاء من المرافقين للسلطان (الحكم المستنصر) .

أخذ محمد بن عامر يتكسب قوته فى هدوء ، ولم يخطر ببال أحد أن ذلك الشاب الرقيق الحال ، الذى يجاهد من أجل عيشه ، سيصبح يوماً ما ، سيد الأندلس ، وبطلها المقدم ، صاحب الحول والطول فيها ، يشار إليه بالبنان ،ويكتب إسمه فى صحف الخالدين .

وشاء الله تعالى ذات يوم أن تطلب السيدة « صبح » زوجة

الخليفة من يكتب عنها ، « فعرفها بأبي عامر من كان يأنس إليه بالجلوس من فتيان القصر .

وما كاد أبو عامر يخطو داخل القصر كموظف بسيط حتى أظهر من ضروب النشاط والهمة والذكاء ، ما ارتقى به سريعا ، وما لفت نظر « صبح » إليه ، وجعلها ترعاه ، وتثق به ، فكتب عنها ، وتمكن من قلبها بما استهواها به من التحف والهدايا ما لم يتمكن لغيره ، فنبهت عليه الحكم — الذى كان يحبها ولا يرد لما طلبا لمكانتها عنده — ، ورغبت فى تشريفه بالخدمة ، فولاه قضاء بعض المواضع فأبرز كفايته كرجل دين ، وفقيه عارف بالشريعة ، وقاض ماهر فى استنباط الأحكام ، وإصابة الحكم ، ثم ترقى إلى وظيفة الإشراف على الزكاة والمواريث فى مدينة أشبيلية .

أخذ هذا الشاب الذكى الطموح ، يرتقى من وظيفة إلى أخرى فى القصر والحكومة ، وينتقل من منصب إلى منصب معتمدا على مهارته ، وفطانته ، ودهائه بالتقرب إلى من بيدهم مقاليد الأمر تارة ، ويضرب بعضهم ببعض تارة أخرى ، حتى جعله الحكم ناظرا للحشم أى ما يشبه منصب ناظر الخاصة بالقصر .

إن الحديث عن المنصور يجب أن يكون عن فترتين ؛ الأولى

وهى التى تنتهى بموت الحاكم المستنصر سنة ست وستين وثلاثمائة من الهجرة ، والتى كان فيها المنصور موظفاً كفئا ، وخادما أمينا ، لصاحب العرش وزوجته ، ورؤسائه كالحاجب جعفر بن عثمان المصحفى وغيره .

والفترة الثانية وهى التى تبدأ بتولية « هشام » المؤيد بن الحكم ـ القاصر الذى أصبحت مقاليد أمره بيد أمه « صبح » والحاجب المصحفي .

وهنا يبدأ القلم فى تسطير صفحة جديدة من تاريخ هذا الرجل ، ليعطينا صورة واضحة عن أنه كيف تستطيع الجسارة ، والذكاء ، والفطنة ، والتروى ، أن تدفع بصاحبها ، والمتمتع بها ، إلى ترقى سلم المجد سريعا وبلوغ أعلى درجات السمو .

انتهزت بعض الإمارات المسيحية فى الشمال تولية هشام الصبى فجاشت وتحركت ، فأسرع المصحفى بتجهيز ابن أبى عامر لقتالها فقضى عليها وشتت شمل جيوشها ، ورجع إلى قرطبة تكلله أكاليل النصر .

وازدادت القربى بينه وبين أم هشام ، وبدأ بعد بضربته الكبرى ووثبته العظمى التى طالما رنا إليها ، وتمنى الوصول إلى مرتبتها .

ولكنه لم يكن بالمتسرع الذى لا يحكم أمره ، ولا بالمتهور

الذى يندفع وراء تحقيق مأربه فى غيرما تروٍّ وأناة . ولكنه عرف كيف يحكم خطته ، ويصل إلى هدفه ، ويقضى على منافسيه .

وجد أن حرس القصر من الجنود الصقالبة وكانوا ثمانمائة أو يزيدون هم عقبة كؤود فى سبيل تحقيق إربه ، وصناع مؤمرات ، فأغرى بهم المصحفى حتى شتتهم وأبعدهم عن القصر ، ثم استعان بغالب — صاحب مدينة سالم من مدن شمال الأندلس — فى القضاء على المصحفى ثم بآخر فى القضاء على غالب ، وهكذا نحى الكبار عن طريقه وكذلك الجنود ، ولم يبق أمامه إلا « صبح » التى « حدثت بينها وبينه وحشة آل الأمر فيها إليه ، فتغلب عليها ، وأخذ الأموال التى كانت بالقصر مختزنة إلى داره ووكل بالقصر من أراد ، ونفى من أراد ، واعترف له هشام ، بالاضطلاع بكل أمور الدولة ، فخرست الألسنة » .

ثم وجد أن الأمر يتطلب وجود حامية مخلصة له ، تأتمر بأمره ، وتكون طوع بنانه ورهن إشارته ، تقف بجانبه وتدافع عنه وتحميه من فتن الحاقدين ، فكون جيشا من البرابرة (أهل المغرب) ، والمرتزقة من جنود النصارى ، وأوسع لهم فى العطاء ، وأكثر لهم فى البذل ، فصاروا عدته ، وسلاحه

البتار ، ضد أعدائه فى الداخل ، وفى غزواته فى الأندلس وغيرها .

وجأر بالمحافظة على الخلافة والعرش ، وكان بوسعه القضاء عليها ، والاستئثار بكل شيء ، ولكنه الفطن الأريب ، الذى عرف كيف يعطل كل سلطان لها ، دون القضاء عليها فحجر على الخليفة ، ومنع مقابلته إلاّ بإذنه ، وجمع السلطة كلها فى يده ، فلم يبق للخلافة إلا اسمها وكتابة اسم الخليفة على السكة والطرز .

وهكذا وصل إلى مأربه ، « وقعد على سرير الملك ، وأمر أن يحيّا بتحية الملوك وتسمى بالحاجب المنصور ، ونفذت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر عقب الدعاء للخليفة » .

تربع المنصور على أريكة الحجابة قرابة سبعة وعشرين عاما ، جعل الجهاد فى سبيل الله شغله ، فقاد جيشه المظفر ، من بلد إلى بلد ، ومن موقع إلى آخر ، لم تهزم له راية ، ولم تُفَلّ له قوة ، فدوخ مسيحيي شمال إسبانيا ، وألقى الرعب فى نفوسهم ، ثم مال على شمال إفريقية فوطد سلطاته فى المغرب الأقصى .

ولم تشغله حروبه المتتالية عن توطيد الأمن ، ونشر الطمأنينة ، والعمل على الرخاء فى البلاد فنعمت الأندلس

فى عهده بالرخاء والرفاهية ؛ ولقد صدق بعض المؤرخين إذ يقول « لم يحدث أن ازدهر نجم الإسلام فى الأندلس كما ازدهر فى عهد المنصور ، إذا استثنينا عهد عبد الرحمن الناصر » .

ولقد شغف بالعلم والعلماء ، وأحب الأدب ، وشجع الشعر ، وأغدق على أصحابها ، وأنعم على روادها وذويها بالعطايا الجزيلة ، وزخرف البلاد فى عهده بطائفة من مشهورى العلماء والأدباء والشعراء ، وكان له كل أسبوع مجلس يجتمع فيه العلماء وغيرهم للبحث والمناظرة ، وليس هذا بالعجيب عليه فإنه الأديب المحسن ، والعالم المتفنن ومما ينسب إليه من شعر ، هذه الأبيات التى يمنى فيها نفسه بملك مصر والحجاز :

منـَع العين أن تذوق المناما
حبها أن ترى الصفا والمقاما
لى ديون بالشرق عند أناس
قد أحلوا بالمشعرين الحراما
إن قضوها نالوا الأمانى وإلا
جعـلوا دونها رقابا وهاما

عن قريب ترى خيول هشام
يبلغ النيل خطوها والشآما

ومما قاله يفخر فيه بنفسه وبأهله وعشيرته ويبين ما تمتع به من صفات الجرأة والمخاطرة التى دفعت به إلى السيادة هذه الأبيات :

رميت بنفسى هول كل عظيمة
وخاطرت والحر الكريم يخاطر
وما صاحبي إلا جنان مشيع
وأسمر خطى وأبيض باتر
وإنى لزجاء الجيوش إلى الوغى
أسود تلاقيها أسود خوادر
فسدت بنفسى أهل كل سيادة
وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر
وما شدت بنيانا ولكن زيادة
على ما بنى عبد المليك وعامر
رفعنا العوالى بالعوالى مثلها
وأورثناها فى القديم بغافر

ويحضرنى عند الحديث عن حب المنصور للأدب ، وتقديره

لأصحابه ، ما ذكره المؤرخون من قصته مع الفتى الأديب إذ يقولون :

« كان بقرطبة فتى قد رقت حاله فى الطلب ، فتعلق بكتاب العمل ، واختلف إلى الخزانة مدة حتى قلد بعض الأعمال ، فاستهلك كثيرا من المال ، فلما ضم إلى الحساب أبرز عليه ثلاثة آلاف دينار ، فرفع خبره إلى المنصور فأمر بإحضاره ، فلما مثل بين يديه ، ولزم الإقرار بما برز عليه ، قال له : « يا فاسق ما الذى جرأك على مال السلطان تنتهبه » ، فقال : « قضاء غلب الرأى ، وفقر أفسد الأمانة » فقال المنصور ، « والله لأجعلنك نكالا لغيرك » ، ثم آمر بقيده فى الحديد وسجنه ، وأمر الضابط بامتحانه والشدة عليه ، فلما قام أنشأ يقول :

أوّاه أوّاه وكم ذا أرى   أكثر من تكرار أوّاه
مالامرئ حول ولا قوة   الحول والقوة لله

فقال المنصور ردّوه ، فلما رُدّ قال المنصور « أتمثلت أم قلت ؟ » قال : « لا بل قلت » ، فقال « حلّوا عنه كبله (قيده) » فلما حلّ عنه أنشأ يقول :

أما ترى عفو أبى عامر   لا بد أن تتبعه منّه
كذلك الله إذا ما عفا   عن عبده أدخله الجنه

قامر بإطلاقه ، وسوغه ذلك المال ، وأبرأه من التبعة فيه .

ومن الشعراء الذين ذاع ذكرهم أيام المنصور وامتاز بالبلاغة ، وغزارة المادة ، وحضور البديهة ؛ أبو مروان عبد الملك بن إدريس الأزدى الجزيرى ، وكان كاتبا أديبا ، ووزيرا من وزراء الدولة العامرية وما أجمل قوله من قصيدة يصف فيها مجلسا من مجالس المنصور .

للياسمين تطلع فى عرشه
مثل المليك عراه زهر مطرق
ونضائد من نرجس وبنفسج
وجنى خيرىّ وورد يعبق
ترنو بسحر عيونها وتكاد من
طرب إليك بلا لسان تنطق
وعلى يمينك سوسنات أطلعت
زهر الربيع فهن حسنا تشرق
فكأنما هى فى اختلاف رقومها
رايات نصرك يوم بأسك تخفق
فى مجلس جمع السرور لأهله
ملك إذا جمعت قناه يفرق

حازت بدولته للغارب رفعة

فغداً ليحسدها عليه الشرق

ومن قوله :

حبتك ياقمر العلا المجلس

أزكى تحيتها عيون النرجس

زهر تريك بحسنها وبلونها

زهر النجوم الجاريات الكنس

ملكن أفئدة الندامى كلما

دارت بمجلسهم مدار الأكؤس

ملك الهمام العامرى محمد

للمكرمات وللنهى والأنفس

وعلى الرغم من أن المنصور أصبح صاحب الكلمة النافذة ، وصاحب السلطة المطلقة فى الدولة ، فلا منازع ولا منافس ، إلا أنه لم يكن بالمتجبر المذموم ، ولا بالمتكبر الذى إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم ، ولا بالظالم الجهول الذى لا يخشى ربه ، بل كان إذا ذكر بالله ذكر ، وإذا خوف من عقابه ازدجر ، يحب العدل ويعين عليه ، وينفر من ظلم رعيته ، ويقسو على الظالم حتى يأخذ للمظلوم حقه ، فنشر العدل فى عهده ألويته فى ربوع

دولته ، ونعم الناس بالطمأنينة ، فلا محاباة لظالم ولو كان من ذوى القربى والحظوة لدى القابض على السلطان والمتربع على أريكة الحكم ، ولا معونة لغاش أو محتال ، ويروى التاريخ لنا عن عدله من القصص الكثير ، غير أننا نكتفى بأن نسوق بعضها لترى أيها القارىء الكريم صدق ما نقول :

فقد كان المنصور يوما بمجلسه إذ جاء رجل من العامة يشكو أحد وصفائه وأشار إليه ثم قال «وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت» ، فقال المنصور « أو عبد الرحمن ابن الفطيس بهذا العجز والمهانة ، وكنا نظنه أمضى من ذلك» ؟

ثم أمره أن يذكر مظلمته ، وبعد ذكرها قال المنصور «ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية » ثم نظر إلى الوصيف، وقد وهل عقله فقال له : « ادفع الدرقة إلى فلان وانزل صاغرا ، وساو خصمك مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك» ففعل ، ومثل بين يديه ، ثم قال لصاحب شرطته الخاص به . « خذ بين هذا الفاسق الظالم ، وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم ، لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره » ففعل ذلك ، ثم عاد الرجل إلى المنصور شاكراً ، فقال له المنصور « قد انتصفت أنت فاذهب لسبيلك ، وبقى انتصافى أنا ممن تهاون بمنزلتى » فتناول

الوصيف بأنواع من المذلة وأبعده عن الخدمة .

ومن ذلك أيضاً قصة مايسمى بمحمد صاحب حجامة المنصور وأمينه على نفسه ، إذ وقع منه فى يوم ما حيف وجور على امرأته ، وظن أن مكانته من المنصور تحميه من يد العدالة ، ولكن القاضى سجنه ، فاحتاجه المنصور يوما فأخبر بأنه فى السجن . فأمر بإخراجه مع رقيب من رقباء السجن يلزمه إلى أن يفرغ من عمله عنده ، ثم يرده إلى محبسه ففعل ذلك على ما رسمه ، وذهب محمد يشكو إلى المنصور مانا له ، فقطع عليه المنصور ، وقال له « يا محمد إنه القاضى وهو فى عدله ، ولو أخذنى بالحق ما أطقت الامتناع منه ، عد إلى محبسك ، واعترف بالحق فهو الذى يطلقك » فانكسر الحاجم ، وزالت عنه ريح العناية ، وبلغت قصته القاضى فصالحه مع زوجته » .

أقبلت الدنيا على المنصور ، وامتلأت الخزائن بالمال ، وغلبت عليه طبيعته العربية الأصيلة ، كما غلب عليه دينه الذى يأمر بالكرم والبذل ، فجاد بالكثير ، وأعطى الفقير والمحتاج ، والضعيف والمسكين ، ووقاه الله تعالى شح نفسه ، فاجتمعت حوله القلوب ولهجت بذكره ألسنة الناس ، وضرب على أيدى من يأكل أموال الناس بالباطل ، وكان مثلا يحتذى

وقدوة يقتدى بها ومما يحكى عنه وفيه يمتزج الجود بالفطانة ، تلك القصة التالية :

قصد تاجر من مدينة عدن المنصور بجوهر كثير ، وأحجار نفيسة ، يبغى رفده ، فأخذ المنصور ما استحسنه منها ، وانصرف التاجر متبعا شط النهر ، ولما كان اليوم قائظا وعرقه ينصب انصباباً دعته نفسه أن يتبرد فى النهر ، فخلع ملابسه ووضع فوقها الصرة التى بها الجوهر والنقود ، وكانت ذات لون أحمر ، فمرت حدأة فاختطفت الصرة تحسبها لحما ، وذهبت بها صاعدة فى الأفق ، والتاجر يتابعها بنظره وقد قامت قيامته ، وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيله، وتغلغلت الحدأة فى البساتين وغابت عن عينيه ، وأسرّ الحزن فى نفسه ، ولحقته لأجل ذلك علة اضطرب فيها ، وحضر وقت الدفع إلى التجار ، واستبان للمنصور ما بالرجل من الكآبة والمهانة وفقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة ، فسأله المنصور عن شأنه فأعلمه بقصته . فقال له : « هلا أتيت إلينا بحدثان وقوع الأمر فكنا نستظهر على الحيلة . فهل هُديت إلى الناحية التى أخذ الطائر إليها؟ » قال: مر شرقاً على سمت هذا الجبل الذى يلى قصرك ، فدعا المنصور شرطيه الخاص به : فقال

له : « جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة » فمضى وجاء بهم فامر بالبحث عمن تغيرت حاله سريعاً من إقلال إلى إكثار ، ونعمة دون تدريج ، فتناظروا فى ذلك ثم قالوا : « يا مولانا ! ما نعلم إلاّ رجل من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم ، ويتناولون السبق بأقدامهم عجزاً عن شراء دابة ، فابتاع اليوم دابة ، واكتسى هو وولده كسوة متوسطة «فأمر بإحضاره من الغد وأمر التاجر بالغدو إلى الباب ، فحضر الرجل بعينه بين المنصور . فاستدناه والتاجر حاضر وقال له : « سبب ضاع منا وسقط إليك ، ما فعلت به « قال » هو ذا يا مولاى ، وضرب بيده الى حجزة سراويله ، وأخرج الصرة ،فصاح التاجر طرباً، وكاد يطير فرحا . فقال المنصور للرجل ؛ صف لى حديثها ،فقال « بينا أنا أعمل فى جنانى تحت نخلة اذ سقطت أمامى ، فأخذتها وراقنى منظرها ، فقلت إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار ، فاجتزت بها ، ودعتنى فاقتى إلى أخذ عشرة مثاقيل عيوناً (أى من الذهب المضروب) كانت معها مصرورة ، وقلت أقل ما يكون فى كرم مولاى أن يسمح لى بها ، فأعجب المنصور ما كان منه ، وقال للتاجر « خذ صرتك وانظرها ، واصدقنى عن عددها » ففعل وقال : « وحق رأسك يا مولاى

ما ضاع منا شيء سوى الدنانير التى ذكرها ، وهبتها له »

فقال له المنصور : « نحن أولى بذلك منك ، ولا تنغص عليك فرحك ، ولولا جمعه بين الإسرار والإقرار لكان ثوابه موفوراً عليه » ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضا عن دنانيره ، وللجنايني بعشرة دنانير ثواباً لتأنيه عن فساد ما وقع بيده وقال : « لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث لأوسعناه جزاء » . وأخذ التاجر بالثناء على المنصور وقد عاوده نشاطه وقال « والله لأبثن فى الأقطار عظيم ملكك ، ولأبينن أنك تملك طير أعمالك كما تملك أنفسها ، فلا تعتصم منك ولا تمتنع ، ولا تؤذ جارك ، فضحك المنصور وقال : « اقصد فى قولك يغفر الله لك » وعجب الناس من تلطف المنصور فى أمره ، وحيلته فى تفريج كربته .

ولقد كره أكل أموال الناس بالباطل ، وأن تستغل سذاجة البسطاء فيظلموا فى حقوقهم ، عاملا بقول الله تعالى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » وإن فى القصة التالية التى يقصها علينا المؤرخون لتبيان لما ذكرت ! .

حينما أراد المنصور إقامة قنطرة أخرى على نهر قرطبة : كانت هنالك قطعة أرض لشيخ من العامة ، لابد أن تستغل

وتدخل ضمن البناء ، « فأمر المنصور أمناءه بإرضائه فيها ، فحضر الشيخ عندهم ، فساوموه بالقطعة ، وعرفوه وجه الحاجة إليها ، وأن المنصور لايريد إنصافه فيها ، فرماهم الشيخ بالغرض الأقصى عنده فى ما ظنه أنها لا تخرج عنه بأقل من عشرة دنانير ذهبا ، كانت عنده أقصى الأمنية ، وشرطها صحاحا ، فاغتنم الأمناء غفلته ، ونقدوه الثمن ، وأشهدوا عليه ، ثم أخبروا المنصور بخبره ، فضحك من جهالته ، وأنف من غبنه ، وأمر أن يعطى عشرة أمثال ما سأل ، وتدفع له صحاحا كما قال ، فقبض الشيخ مائة دينار ذهبا ، فكاد أن يخرج من عقله ، وأن يجن عند قبضها من الفرح ، وجاء محتفلا فى شكر المنصور ، وصارت قصته خبرا سارا » .

ولقد ضرب المنصور بقسط وافر فى تشجيع العمران ، وخاصة ما يعود منه بالخير على رعيته ، فوسع المسجد الجامع بقرطبة كما سبق ذكره ، وأقام على نهر قرطبة قنطرة أخرى غير القديمة أنفق عليها أربعين ومائة ألف من الدنانير انتهى منها سنة تسع وسبعين وثلاثمائة من الهجرة ، وأقام قنطرة ثانية على نهر « استجه» كما أنشأ ضاحية الزاهرة التى سبق الحديث عنها .

هكذا سطر المنصور لنفسه صفحات فى سجل الخالدين ،

وبدا كمصلح عظيم بين المصلحين العاملين ، ونقش اسمه فى التاريخ بين المجاهدين لنصرة الدين وإعلاء كلمة الله تعالى ، وظهر كسياسى قدير ، خطب وده الملوك وخشى بأسه أصحاب السلطان ، والتفت حوله رعيته تحفه بقلوبها ، وتسنده بحبها ، فاستحق ما قاله بعض المؤرخين الأجانب من أنه « كان بسمارك القرن العاشر الميلادى » .

لم يكن يشينه إلا حكمه المطلق ، واجتراؤه على منصب الخلافة ، ووسائله التى استغلها فى القضاء على بعض خصومه .

ولقد « اتسم المنصور بصحة باطنه ، واعترافه بذنبه ، وخوف من ربه ، وكثرة جهاده ، ولم يزل متنزها عن كل ما يفتن الملوك سوى الخمر ، لكنه أقلع عنها قبل موته بسنتين » .

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا المقام أن المنصور كان دائماً يحمل مصحفاً ـ قد خطه بيده ـ فى أسفاره وغزواته يدرس منه ويتبرك به ، وفى القصة التالية نلمح إيماناً عميقا وخوفاً من الله تعالى ، وتروى كتب التاريخ أنه كان هناك سجين من خدم المنصور فى جملة من طال سجنه وكان شديد الحقد عليه ، فوقع على اسمه بأن لا سبيل إلى إطلاقه حتى يهلك ، وعرف الرجل بتوقيعه فاهتم واغتم ، وأجهد نفسه فى الدعاء والمناجاة ، فأرق

المنصور إثر ذلك ، واستدعى النوم فلم يقدر عليه ، وكان يأتيه عند تنويمه آت كريه الشخص ، عنيف الأخذ ، يأمره بإطلاق الرجل ويتوعده على حبسه ، فاستدفع شأنه مرارا ، إلى أن علم أنه نذير من ربه ، فانقاد لأمره ، ودعا بالدواة فى مرقده فكتب بإطلاقه وقال فى كتابه : «هذا طليق الله على رغم أنف أبى عامر» .

ولقد تمنى المنصور أن يموت فى ساحة الوغى مجاهدا فى سبيل الله . . . راجياً رحمة ربه ومغفرته وبلغ من قوة رجائه «أنه اعتنى بجميع ماعلق بوجهه من الغبار فى غزواته ، ومواطن جهاده ، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل فى كل منزل من منازله، حتى اجتمع له منه صرة ضخمة ، عهد بجعله فى حنوطه ، وكان يحملها حيث سار مع أكفانه توقعاً لحلول منيته ، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الصنيعة الموزونة عن أبيه وغزل بناته » .

وشاء الله عز سلطانه أن يحقق له رغبته فمات سنة أربع وتسعين وثلاثمائة من الهجرة ، نتيجة لجراح أصيب بها فى غزوته الأخيرة من غزواته ، التى بلغت نيفا وخمسين غزوة ، وحمل على سريره ، ودفن فى مدينة سالم بشمالى الأندلس ، ودفن معه صرة الغبار كما أوصى بذلك ، ونقش على قبره :

آثاره تنبيك عن أخباره
حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتى الزمان بمثله
أبداً ولا يحمى الثغور سواه

ابن حزم :

من بين الشخصيات المرموقة فى عالم الثقافة الإسلامية ودنيا العلم ، والتى غذت الفكر الإنسانى بمعارفها وسعة اطلاعها ، شخصية الفقيه على بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الأندلسى. ويكنى أبا محمد ... وأبوه هو الوزير أبو عمر أحمد بن سعيد الذى وزر للحاجب المنصور بن أبى عامر .

وكما امتاز هذا الفقيه بحدة الذهن ، والذكاء المفرط ، وسرعه الخاطر ، امتاز بكثرة الاطلاع وسعة العلم بالكتاب والسنة ، والمذاهب والملل والنحل إلا أنه قد اتصف بسوء الاعتقاد والوقوع فى السلف ، مما أثار عليه الانتقاد وألب عليه الخاصة والعامة .

كان أبو محمد فى مبدأ أمره شافعى المذهب . ولكنه مالبث أن هجر هذا المذهب وانتحل مذهب داود بن على الظاهرى وتبناه

ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ وترعرع مذهب الظاهرية فى الغرب على يد هذا الفقيه وصار له أتباع وتلاميذ . ـ ومن خصائص أتباع المذهب الظاهرى أنهم يأخذون بظاهر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، ثم ينكرون القياس الشرعى ـ وهو أساس من الأسس التى بنى عليها الفقهاء الفقة وأصول الفقه ـ ويزعمون أن علة الأصل هى علة الفرع .

ودافع ابن حزم عن مذهب الظاهرية فى غير هوادة ولا شفقة ، وكان كما يقول ابن حيان « يصك معارضه صك الجندل ، وينشقه متلعقه انشقاق الخردل ، فنفر عنه القلوب ، وتوقع به النا وب ، حتى استهدف إلى فقهاء عصره ، فمالوا إلى بغضه ، ورد قوله ، وأجمعوا على تضليله والتشنيع عليه ، وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا أعوانهم من الدنو إليه والأخذ عنه ، وطفق الملوك يقصونه عن قربهم ويسيرونه عن بلادهم إلى أن انتهوا به منقطع أثره بتربة بلده من بادية لبلة » .

يحكى أنه ذات مرة تناظر فيها أبو محمد بن حزم والقاضى أبو الوليد الباجى المالكى ، فقال الباجى : لقد طلبت العلم وأنا أسهر فى مشكاة من الزيت وطلبته أنت وأنت قادر عليه معان له.

فرد بن حزم : لقد طلبت العلم كما تعلم من حالى ولكنك طلبته لتصير فى مثل مالى .

والظاهر أن نشأة ابن حزم المترفة الناعمة البعيدة عن شظف العيش وقسوة الحياة هى التى أذكت فيه هذا الخلق المذموم — وثمة شىء آخر أثر فى شخصية ابن حزم العالم هذا الأثر السيء وحملت القريب والبعيد على بغضه والعالم والجاهل على كراهيتا والبعد عنه ، وأثرت فى سيكولوجيته هذا التأثير المشين ، وقد علل العلامة طاهر الجزائرى — رحمه الله — تعليلا نفسياً إذ يقول « وقد علم من وقف على كثير من مؤلفات ابن حزم أنه يجنح فى أكثر المواضع إلى مخالفة الجمهور — وهو فى أكثر ما خالفهم فيه أقرب إلى الخطأ منه إلى الصواب — ثم استطرد قائلا : ولعل ذلك نشأ عما أشار إليه (ابن حزم نفسه) فى كتابه — مداواة النفوس حيث قال : ولقد أصابتى علة شديدة وَلّدت عنّىَ ربوا فى الطحال شديداً ، فولد ذلك على من العجز وضيق الخلق وقلة الصبر والنزق أمراً حاسبت نفسى فيه ، فأنكرت تبدل خلقى واشتد عجبى من مفارقتى لطبعى »

ومع هذه الصفات فقد كان أمة وحده فى عالم التأليف . . . فألف فى الفقه والأصول والمنطق والفلسفة ، ووجه عناية خاصة

إلى دراسة الديانات المختلفة والنحل المتباينة وقارن بعضها ببعض ..

ومن مؤلفاته الكثيرة : الفصل بين أهل الأهواء والنحل والصادع والرادع على من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين ومن كتبه أيضاً كتاب الجمهرة فى أنساب العرب وكتاب طوق الحمامة . وقد قام أستاذ المستشرقين الإسبان آسين بلاثيوس بدراسة مستفيضة عن كتاب الفصل وترجمه إلى اللغة الإسبانية .. كما قام السنيور غارثياغومس بنفس الدراسة عن كتاب طوق الحمامة وترجم النص العربى أيضا إلى اللغة الإسبانية .

هذا . ويعلق الإمام الغزالى على مؤلف لأبى محمد بقوله : « وجدت فى أسماءِ الله تعالى كتابا لأبى محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه » .

بينه وبين ابن عمه :

حدث نزاع بينه وبين ابن عمه أبى المغيرة بن حزم الوزير الكاتب وبعث الوزير إليه برسالة فأجاب أبو محمد بقوله : سمعت وأطعت لقول الله تعالى « وأعرض عن الجاهلين »، وأسلمت وأنفدت لقول نبيه عليه الصلاة والسلام : « صل من قطعك واعف عمن

ظلمك » . ورضيت بقول الحكماء « كفاك انتصارا ممن تعرض لأذاك إعراضك عنه » . وأقول :

تتبع سوای امرأ يبتغی
سبابك إن هـواك السباب
فإنی أجبت طـلاب السفاه
ونزهت عرضی عما يعاب

وأقول :

كفانی بذكر الناس لی ومآثری
وما لك منهم يابن عمی ذاكر
عدوی وأشياعی كثير كذاك من
غدا وهو نفاع المساعی وضائر
وإنی وإن آذيتنی وعققتنی
لمحتمل ما جاء منك صابر

فوقع له أبو المغيرة على ظهر رقعته قائلا : « قرأت هذه الرقعة العاقة فحين استوعبتها أنشدتنی :

نحنح زيد وسعل لما رأى وقع الأسل

فاردت قطعها ، وترك المراجعة عنها ، فقالت لی نفسی قد عرفت مكانها : بالله لا قطعتها إلا يده ، فأثبت على ظهرها ما يكون سببا إلى صونها فقلت :

فعقت ولم تدر كيف الجواب
وأخطأت حتى أتاك الصواب
وأجريت وحدك فى حلبة
نأت عنك فيها الجياد العراب
وبتَّ من الجهل مستصحباً
بغير برى فأتتك الذئاب
فكيف تبيبت عقبي الظلوم
إذا ما انقضت بالخميس العقاب
لعمرى مالى يراع تذم
ولا شيمة يوم مجد تعاب
أنيل المنى والضبا سخط
وأعطى الرضا والعوالى غضاب

ومن طريف ما يحكى عن الوزير الكاتب أبى المغيرة قال: نادمت يوما المنصور بن أبى عامر فى منية السرور بالزاهرة ذات الحسن النضير، وهى جامعة بين روضة وغدير، فلما تضمخ النهار بزعفران العشى، وأسبل الليل جنحه وتقلد السماك رمحه أو قدنا مصابيح الراح، واشتملنا ملاء الارتياح وللدجن فوقنا رواق مضروب ففنتنا جارية تسمى «أنس القلوب» وقالت:

قـــدم الليل عند سير النهـار
وبدأ البدر مثل نصف سوار
فـكأن النهـار صفحة خـــد
وكأن الظـلام خط عـــذار
وكأن الـكؤوس جامـد ماء
وكأن المـدام ذائب نـار
نظرى قـــد جنى على ذنوبا
كيف مما جنته عينى اعتذارى ؟
ياقومى تعجبوا من غزال
جائر فى محبتى وهو جارى
ليت لو كان لى إليه سبيل
فأقضى من حبـه أو طارى
قال : فلما أكملت الغناء ، أحسست بالمعنى فقلت :
كيف كيف الوصول للأقمار
بين سمر القنـا وبيض الشفار
لو علمنا بان حبك حق
لطلبنـا الحياة فيـك بثـار

وإذا ما الكرام هموا بشيء
خاطروا بالنفوس فى الأخطار

قال فعند ذلك بادر المنصور لحسامه ، وغلظ فى كلامه ، وقال لها : قولى وأصدقى إلى من تشيرين بهذه الأبيات،وإلى من هذ الشوق والحنين ؟ فقالت الجارية إن كان الكذب أنجى ، فالصدق أولى وأحرى ، والله ما كانت إلا نظرة ، ولدت فى القلب فكرة ، فتكلم الحب على لسانى ، وبرح الشوق بكتمانى ، والعفو مضمون لديك عند المقدرة ، والصفح معلوم منك عند المعذرة ، ثم بكت ، فكأن دمعها قد تناثر عن عقد ، أو طل تساقط من ورد ، ثم أنشدت :

أذنبت ذنبا عظيما فكيف منه اعتذارى
والله ماقدر هذا ولم يكن باختيارى
والعفو أحسن شىء يكون عند اقتدارى

قال : فعند ذلك صرف المنصور وجه الغضب إلىّ . وسل سيف السخط علىّ ، فقلت : أيدك الله ، إنما كانت هفوة جرها الفكر ، وصبوة أيدها النظر ، وليس للمرء إلا ما قدر له لا ما أمله واختاره ، فأطرق المنصور قليلا ، ثم عفا وصفح ، ووهب لى الجارية ، وانصرفت بها إلى منزلى .

شعر ابن حزم .

قرض ابن حزم الشعر وطرق بابه ، وهام به فى أدوية الشعراء ولكنه لم يشتهر بشعره كشاعر ولم ينعت به كغيره من الشعراء الذين غلبت عليهم صناعته . . . . ولكنه عرف بالفقه والأصول والمنطق والفلسفة والعلوم العقلية التى تتصل بالبراهين ويغلب عليها طابع الجدل . . ومن شعره الذى يخاطب به قاضى الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن بشير يفاخر فيه بنفسه ويندب على طريقته حظه المفقود فى وطنه . . ويتشوف أرض العراق فيقول :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة
ولكن عيبى أن مطلعى الغرب
ولو أننى من جانب الشرق طالع
لجد على ماضاع من ذكرى النهب
ولى نحو آفاق العراق صبابة
ولاغرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلى بينهم
فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل أغفلته وهو حاجز
وأطلب ماعنه تجىء به الكتب

هنالك يدرى أن للعبد قصة
وأن كساد العلم آفاته الغرب

فياعجبا من غاب عنهم تشوقوا
له ، ودنو المرء من دارهم ذنب

وإن مكانا ضاق عنى لضيق
على أنه فيح مهامهه سهب

وإن رجالا ضيعونى لضيع
وإن زمانا لم أنل خصبه جدب

ولما ثار عليه الفقهاء والعامة فى زمانه لمخالفته مذهب الجماعة السائد فى أرضهم وديارهم وانتحل هذا المذهب الغريب الدخيل عليهم من جهة ولطعنه فى علماء عصره من جهة أخرى ، وجنوحه فى أكثر الموضع إلى مخالفة الجمهور وكان فى أكثر ما خالفهم فيه أقرب إلى الخطأ منه إلى الصواب .. مما ترتب عليه إحراق كتبه وإبادتها . . فعز عليه صنيعهم فأنشأ يقول معزيا نفسه بهذه الأبيات :

دعونى من إحراق رق وكاغد
وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى
تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبى
وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى

ولادة بنت المستكفى :

هى فرع من فروع الدوحة المالكة ، وغصنٌ من أغصان البيت الأموى فأبوها هو الخليفة محمد الثالث الملقب بالمستكفى .. ولما توفى والدها تاقت نفسها إلى الانطلاق بعيدا عن الحياة الروتينية الرتيبة ، فهجرت بيت الأسرة الذى نبتت بين أحضانه ، وترعرعت بين جنباته وآزهاره ، وراحت تبحث عن حياة اجتماعية صاخبة تتلاءم مع ميولها الأدبية ومشاعرها الفنية.. ولم يعيها البحث ولم يطل بها التنقيب فأمامها طائفة الأدباء والشعراء والكتاب وأرباب اللسان والقلم وفيهم من الصفات ما يلائم مزاجها وينسجم مع طبيعتها .

وكانت ولادة تتمتع بكثير من الصفات المحببة إلى جانب أدبها وشعرها ، فجمالها الباهر ، وذكاؤها النادر ، وابتساماتها المشرقة ، وإجادتها فن المقابلة وإدارة الحديث مع سرعة الخاطر ولباقة

فى التصرف ، وقوة الشخصية كل هذه الصفات قد خلقت منها المرأة الأولى فى المجتمع القرطبي نشرت على الناس أنفاسها وعطرها ، وجعلت من بيتها كعبة القصاد يؤمه كبراء الدولة ورواد الثقافة وعشاق الأدب ، وجعلت من ساحات قصرها قاعات يتنافس فيها الكتاب ويتناظر العلماء ويتبارى الشعراء .

ولقد غزا الحب قلب ولادة الشاعرة الأديبة كما يغزو قلوب جميع العذارى .. وكان هواها مع شاعر الحب ابن زيدون الذى ملأ شعره بذكرها وعطره بأنفاسها ، ولم تستطع هى الأخرى أن تملك زمام قلبها ولا أن تتصرف فى عواطفها فبادلته حبا بحب وهياما بهيام .

وتكفلت الأيام بإفشاء سرها ، وذيوع مكنون أمرها ، وعرف القاصى والدانى ما كان بينهما بعد أن ظل الحب فترة يكتنفهما ويرفرف بالسعادة عليهما .

ولم تمض فترة طويلة على هذا الحب العارم حتى طرق قلب الشاعر طارق واحتل هذا الطارق من قلبه مكانا رحيبا ... ولم يكن هذا المحتل الغاصب سوى حب جديد لفتاة سمراء كانت تعمل كوصيفة لولادة نفسها .

ولما نما علم ذلك إليها ــ ولادة ــ تغير قلبها ، وراحت تقصيه

عن طريقها حتى كرهت اللقاء به أو الحديث عنه . . وتوالت الإحن والكوارث على الشاعر واتهمه الوزير الكاتب أبو محمد بن عبدون بتهمة خطيرة ألزمته سجن قرطبة يرسف فى قيوده وأغلاله .. ويقول الفتح بن خاقان بعد كلام ، ماصورته « ولما عضته أنياب الاعتقال ، ورضَّتْه تلك النُوبُ الثقال ، وعُوض بخشانة العيش من اللين ، وكان قسوة خَطْب لا يلين ، وتذكر عهد عيشه الرقيق ، ومراحه بين الرصافة والعتيق ،وحن إلى سعد زرت عليه جيوبه ، واستهدى نسيم عيش طاب له هبوبه . وتأسى بمن باتت له النوائب بمرصاد ، ورمته بسهام ذات إقصاد فقال :

الهوى فى طلوع تلك النجوم
والمنى فى هبوب ذاك النسيم
سرنا عيشنا الرقيق الحواشى
لو يدوم السرور للمستديم
وطر ما انقضى إلى أن تقضى
زمن ما ذمامه بالذميم
أيها المؤذنى بظلم الليالى
ليس يومى بواحد من ظلوم

ما ترى البدر إن تأملت والشمـ
س هما يكسفان دون النجوم
وهو الدهر ليس ينفك ينحو
بالمصاب العظيم نحو العظيم

ولما اشتدت عليه وطأة السجن أحس بفداحة صنعه، وقلة وفائه لحبيبته فبعث إلى الوزير ابن جهور وابنه وكثير من الأصدقاء يطلب منهم المعاونة على فك أسره وقيده .. ولما يئس من المعاونة بعث إلى ولادة ليقيم لها البراهين على عهده ووفائه، ويذكر لها سُهْده وأرقه فى قصيدة طويلة منها :

ما جال بعدك لحظى فى سنى القمر
إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر
ولا استطلت ذَمَاءَ الليل من أسف
إلا على ليلة سُرَّت مع القِصَر
فى نشوة من شباب الوصل موهمة
أن لا مسافة بين الوهن والسحر
ياليت ذاك السَّوادُ الجوْن متَّصلٌ
قد استعار سواد القلب والبصر
يا للرزايا لقد شافهت منهلها
غمْرا، فما أشرب المكروه بالغُمَر

لا يهنأ الشَّامتَ المرتاح خاطِرهُ
أنِّى مُعَنىًّ الأمانى ضائع الخطر

هل الرياح بنجم الأرض عاصفة
أم الكسوف لغير الشمس والقمر

إن طال فى السجن إيداعى فلا عجب
قد يودع الجفن حد الصارم الذكر

وإن يُثبِّط أبا الحزم الرِّضا قَدر
على كشف ضرٍّ فلا عتْب على القدر

من لم أزل من تَأنِّيه على ثقة
ولم أبت من تَجنُّبِه على حذر

ولابن زيدون قصائد أخرى فى الغزل والاستعطاف ، ومن هذه القصائد :

يا مستخفا بعاشقيه ومستغشا لنـاصحيه
ومن أطاع الوشاة فينا حتى أطعنا السُّلوَّ فيه
الحمـد الله إذ أرانى تكذيب ما كنت تدعيه
من قبل أن يهزم التسلى ويغلب الشوق ما يليه

ومن أحسن وأرق قول ابن زيدون المذكور فى قصيدته النونية الشهيرة فى شكاته لحبيبته قوله :

غَصَّ العدا من تساقينا الهوى فدعوا

بأن نَغَصَّ فقـــال الدهر أمينا

ويقول المقرى فى كتابه « نفح الطيب » ومن أغرب ما وقفت عليه موشحة لابن الوكيل دخل فيها على أعجاز نونية ابن زيدون ، وهذه هى :

غدا منادينــــا مُحَكَّماً فينـــا
يقضى علينا الأسى لولا تناســينا

* * *

بحر الهوى يغرق من فيه جُهْدَه هام
وناره تحـــرق من همَّ أوقد هام
وربمـــا يقلق فتى عليـــه نام
قد غير الأجسام وصـــير الأيام
سودا كانت بكم بيضا ليالينـــا

* * *

يا جيرة بانَتْ عن مُغْرَمٍ صَبٍّ

لعهده خَانَتْ من غير ما ذَنْبِ
ما هكذا كانت عوائدا العُـرْبِ
لا تحسبوا البعد! يغـير الْعَهْدَا
إذ طالما غير النَّأْ ىُ المحبينـا

* * *

يا نازلا بِالْبَان بالشـفع والْوَتْر
والنحل والفرقان والليل إذا يَسْرِى
وسورة الرحمن والنحل والحجـر
هل حَلّ فى الأديانْ أَنْ يُقْتَل الظَّمآن
من كان صرف الهوى والود يسـقينا

* * *

يا سائل الْقَطْرِ عرج على الوادى
من ساكنى بَدْر وقف بهم نادِى
عَسَى صَبَا تَسْرِى لِمُغْرَمٍ صَادِى
إن شئت تُحْيينا بلغ تحيتنـا
من لو على البعد حيـا كان يحيينا

وافت لنا أيَّامْ كأنها أعْـوَامْ
وكان لى أعْوَامْ كأنهـا أيَّامْ
تمر كَالأحْـلاَمْ بالوصل لى لو دام
والكأس مترعة حُثَّتَ مشعشعةً
فينا الشَّمُولُ وَغَنَّانَا مُغَنِّيْنَا

ويعلق الأستاذ غرثيه غومث على قصيدة ابن زيدون النونية بقوله .. إنها أروع قصيدة جادت بها قريحة شاعر من شعراء المسلمين فى إسبانيا ، ثم يضيف : وهى من روائع الأدب العربى العالمى .. والواقع أن القصيدة تمتاز برقتها وسلاستها وجمال موسيقاها ولا يزال بعض الشعراء المحدثين يعارضونها وينسجون على منوالها . . ومن هؤلاء قصيدة لشوقى التى يقول فيها :

يا نائح الطلح أشبـاه عوادينا
نأسى لواديك أم نشجى لوادينا

ومن هذا كله يتبين للقارئ مقدار تأثير وروعة شعر ابن زيدون فى الشعراء الذين عاصروه وأتوا بعده .. وربما يرجع الفضل فى إذكاء جذوة الشعر فى نفسه إلى ولادة .

ختام

وبعد فليس من المستطاع الإلمام فى هذا الكتيب بجميع رجالات الفكر وأقطابه ومن ازدهرت بهم قرطبة عاصمة الأندلس فى شتى عصورها ، من الأدباء ، والفقهاء ، والمغنين ، والمتصوفة ، والفلاسفة ، والشعراء ـ الذين نظموا القصيدة الكلاسيكية أو القصيدة المتطورة التى عرفت باسم « الموشحة » ثم « الزجل » ... والناظر فى كتب التواريخ التى أرخت للأندلس عامة يجد حشدا هائلا من هؤلاء ، فإنه ما يأتى القرن الرابع الهجرى حتى برز إلى أفق الجو القرطبى والأندلسى معا جملة من الشعراء الذين نظموا الفصيح من الشعر ونذكر منهم ، ابن هانىء الألبيرى ، وابن عبد ربه ، وابن فرج الجيانى وأحمد بن عبدالملك بن شهيد الذى لقب بذى الوزارتين فى عهد الناصر ، امتثالا باسم صاعد بن مخلد ـ وزير بنى العباس فى بغداد ، وكان نبوغه فى القرن الخامس ، واشتهر برسالة « التوابع والزوابع » وهى على نسق « رسالة الغفران » لأبى العلاء المعرى .

ولما سقطت الخلافة الأموية ، وانقسمت الأندلس إلى ما أسماه

المؤرخون بملوك الطوائف برغم الوهن السياسى الذى أصاب الدولة سياسيا فإن دولة الشعر والشعراء ، قد أخذت سبيلها إلى النمو والازدهار ، وصار الشعراء فى الأندلس يرون أنهم ليسوا باقل من إخوانهم شعراء المشرق ، وبرز فى كل دويلة من هذه الدويلات شعراؤها الذين يحتلفون بها ويشيدون بمآثرها ، فمثلا كان من شعراء المعتمد بن عباد بأشبيلية ، ابن اللبانه ، وابن عمار ، وعبدالجليل بن وهبون . ونجد من شعراء المعتصم ابن صمادح صاحب « المرية » ، وابن الحداد ، وأبو الوليد النحلى . ومن شعراء المتوكل ، صاحب « بطليَوْس » ، ابن عبدون .

ولما تغلب المرابطون واحتلوا دولة الأندلس ، تميز هذا العصر بالزجل ، وظهر فيه أبو بكر ابن قزمان الذى يعرف بإمام الزجالين ، ولكن صناعة الزجل التى صادفت سوقا نافقة بإقبال الكثير عليها من الشعراء ؛ إلا أن هذا لايعنى انقراض الشعر الفصيح ، فهذا ابن خفاجه الأندلسى الذى اشتهر بوصف الطبيعة ، وابن الزقاق الذى اشتهر بالتشبيهات ، وفى عصور يذكر ابن الخطيب ، ثم تلميذه ابن زمرك الذى لا يزال شعره يزين جدران قصر الحمراء .

ومن غير الشعراء نجد المتصوفة الذين بلغوا من الشهرة

فى العالم الإسلامى شأوا بعيد المدى ، واتصلوا بأوروبا ، نذكر منهم ، محى الدين بن عربى الحاتمى المولود فى سنة ٦٥٠ هـ بمدينة « مرسية » ويعتبر بجدارة من أكبر علماء الصوفية ، ومن ألقابه الذى كان يلقب بها : الغَوْث وأحيانا الشيخ الأكبر... الخ ومن مصنفاته القيمة «الفتوحات المكية » « وفصوص الحكم »وقدرمى ـ رحمه الله ـ بالكفر والإلحاد من المسلمين ، أما فى الغرب فقد نال حظوة عظيمة فتعرف عليه دانتى وتأثر به .. ومنهم أبو محمد بن الحق بن سبعين من أهل مرسية أيضا وكانت ولادته سنة ٦١٤ هـ ولم يكن حظه من تهمة الإلحاد والكفر بأقل من سلفه ابن العربى وابن مسرة وغيرهما . ووصلت شهرته إلى العالم المسيحى ، ويتضح ذلك جليا ، حينما أراد فردريك الثانى صاحب صقلية استيضاح بعض المسائل المتعلقة بالفلسفة ، لم يجد من يهديه إلى الصواب فى عواصم العالم الإسلامى سواء فى مصر أو فى الشام أو فى غيرها ، ولكنه انتدب لذلك ابن سبعين وكان من نتيجة ذلك ما يعرف « بالمسائل الصقلية التى إن دلت على شىء فإنما تدل على تبحره فى العلوم الفلسفية .

وهناك الكثير من علماء التاريخ والفقه وغيرهما الذين لو ذهبنا فى استقصائهم لخرجنا عما التزمناه فى هذا الكتاب ،

وإنما هى قطرات من هذا الفيض الزاخر الذين احتشدت بهم دولة الإسلام فى الأندلس التى قادتها قرطبة العاصمة إلى هذه الثروة الضخمة من العلوم ، والمعارف الإنسانية ، فأنارت الطريق أمام أوروبا وغيرها .

نعم هذه هى قرطبة وهذا هو بعض دورها فى تاريخ الفكر الإنسانى ، ألمعنا إليه فى هذه الصفحات وهى من غير شك لا يزال لها فى قلب كل مسلم ذكرى تقصر عنها الذكريات ، فهى تحكى عاصمة أمة ذهبت ، ودولة انقرضت ، وجنات ضيعت فهى كما قالوا بحق : الفردوس المفقود .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٥٢٣/١٩٨٦

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٠٩٩٩ - ١